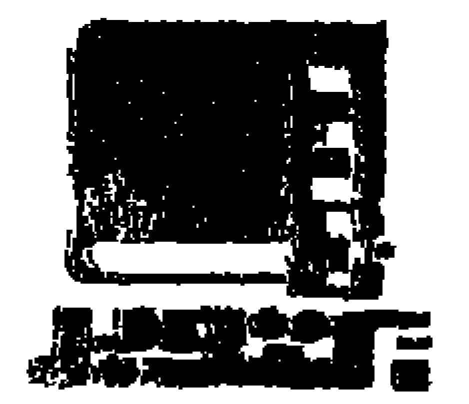
صلاح منتصر

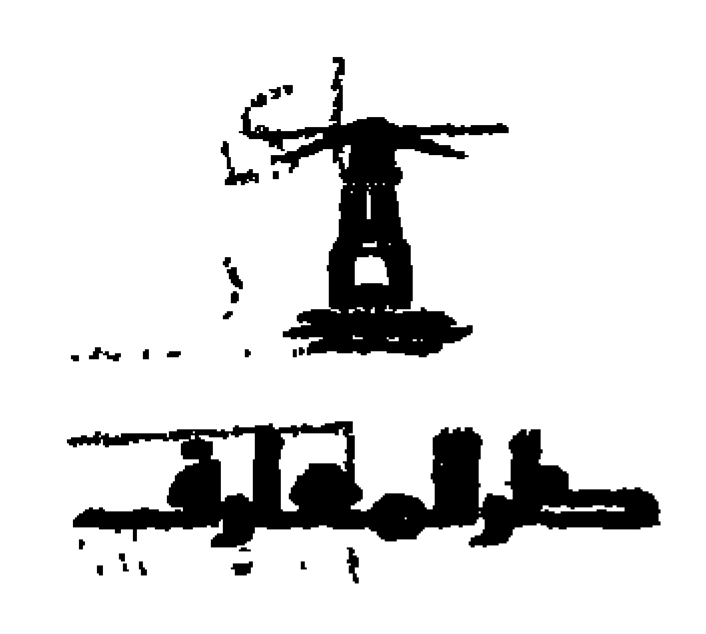
رسالة.. إلى أى شاب

دار المعارف



رسالة إلى أى شاب

صلاح منتصر



الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

حكاية هذه الرسائل

لم أتصور فى يوم من الأيام أن أعتلى منبر الواعظ أو الناصح، فرصيدى الأكبر وفخرى أننى أشارك القراء جلستهم ومشاكلهم وأحاديثهم وحياتهم.. وهذه الرسائل إلى أى شاب لم أقصد بها توجيه النصح إلى الشباب، فلازلت أعتبر نفسى شابًا برغم عتبة الخمسينات التى تجاوزتها، ولكن إحساس الشباب شىء وقوته ومغامراته وعنفوانه شىء آخر..

وقد حدث فى ديسمبر عام ١٩٨٦ أن تولى الزميل العزيز عبد الوهاب مطاوع رئاسة تحرير مجلة الشباب وعلوم المستقبل.. وفوجئت به يتصل بى ويطلب إلىَّ أن أكون معه عضوًا دائما فى تحرير المجلة، لم أستطع يومها أن أعطيه كلمة، فمن بين ما تعودت عليه أن ألتزم بكل ما أعد به.. ومن عادتى دائمًا أن أخاف من كل جديدٍ، وأن أفكر فيما يمكن أن أضيفه ويعطينى طابعًا مختلفًا عن الآخرين.. وفى لحظة إلهام كانت فكرة هذه الرسائل: رسالة إلى أى شاب..

كان السبب الأول أننى أكتب فى مجلة عنوانها: الشباب وعلوم المستقبل، وكان السبب الثانى أن أحد الكتب التى قرأتها من بين مئات وقرأت كتاب نهرو «رسائل إلى ابنتى» وهى الرسائل التى شغل بها نفسه طوال فترة سجنه، وقرر أن يعلم فيها ابنته دروس التاريخ وعلوم الإنسانية، فى صورة رسائل سهلة أدبية ممتعة، أذكر أننى قرأتها أكثر من عشرين مرة وفى كل مرة كنت أجد فيها جمالا جديدًا.. كان فى داخلى نهرو صغير، ولكن مع فارق المحيط الواسع من العلوم والمعرفة، وموهبة الرشاقة فى الفكر والتعبير التى كان نهرو يتمتع بها..

وعندما بدأت أكتب أول رسائلى إلى الشباب، وجدت أنه من الضرورى اختيار اسم شاب أوجه إليه هذه الرسائل، ويكون هذا الاسم رمزًا لكل الأسماء الأخرى.. ولم أفكر طويلًا، فقد وجدت نفسى أبدأ رسالتى الأولى بكلمتى: عزيزى شريف.. وكما كانت رسائلى تهرو قابعة داخل النفس فى انتظار اللحظة المناسبة التى تخرج فيها من القمقم المحبوسة فيه، كذلك كان اسم شريف جاهزًا فى الانتظار، لأنى سبق أن كتبت إليه رسالة فى مجلة أكتوبر نشرت فى العدد ٤٨٠ بتاريخ ٥ يناير عام ١٩٨٦..

كان شريف يومها اسما حقيقيًا لا رمزيًا.. وكنت قد تلقيت منه خطابًا يبثنى كل أفكاره وخواطره عن قضية سليمان خاطر، التى اختلط فيها الأمر على كثيرين من المواطنين، بسبب عديد ما أطلقته صحف المعارضة عليه حتى جعلته بطلا..

وكان إحساسى بالحزن كبيرًا، وأنا أشاهد خلط ثياب الوطنية والبطولة والفداء، وإلباسها من لا يستحقون ، لا لغرض سوى المعارضة.. وكنت يومها فى حاجة شديدة إلى أن أتحدث إلى شباب مصر، هذا الشباب الذى اختلط عليه الأمر وصنعوا له أبطالا من الورق يقدسها ويمجدها.. ولهذا جاءت رسالة قارئ شاب اسمه شريف محمد الإسكندرانى منسجمة تماما مع ما كنت أفكر فيه..

وتحت عنوان: (قضية بلا موضوع.. وبطل بلا بطولة) نشرت فى العدد ٤٨٠ الصادر فى ٥ يناير عام ١٩٨٦ ما يلى:

السيد الأستاذ/صلاح منتصر
تحية طيبة وبعد...

فأنا طالب بالصف الثانى الثانوى بالقسم الأدبى، وأمين جماعة الصحافة بمدرسة إدكو الثانوية العامة، وأكتب إليك هذه الرسالة لأسجل لك مدى شعور الطلبة واستيائهم من قرار الحكومة بعرض الجندى البطل سليمان خاطر للمحاكمة بتهمة قتل ٧ أشخاص إسرائيليين، ولم يعرض أمام محكمة عادية، بل سيعرض أمام محكمة أمن دولة عليا.

فهل جريمة هذا الجندى البطل، الذى اتهم بالجنون أنه دافع عن حرمة أرضه، وغيرته الوطنية والدينية مما يفعله الإسرائيليون بأرضنا من مظاهر الفساد؟ هل فعلنا كل ذلك من أجل أن نرضى إسرائيل؟! إننى أستطيع أن أتنبأ بحكم المحكمة، وهو إما الإعدام شنقًا وإما إحالته إلى مستشفى المجانين، لقد سمعت شخصًا يذكر فى إذاعة مصر العربية من دمشق أنه مادامت الحكومة اتهمت هذا البطل بالجنون، فليت كل أم مصرية تلد ابنها مجنونًا لكى يفعل مثلما فعل هذا البطل سليمان خاطر، فهل بدلا من أن نكرمه نحكم عليه بالجنون ونقدمه للمحاكمة كأنه إرهابى؟ فلو كان الأمر هكذا فسنحكم على كل جندى مصرى بطل حارب حربى ٦٧ و ٧٣ بالقتل، لأنه تجرأ وقتل أحد الإسرائيليين! هل نسينا من هم الإسرائيليون؟ وما يفعلونه بأراضينا؟ إن كنا نسينا فهذه كارثة، وإن كنا لم ننس ونغفل ما تفعله فهذه كارثة أكبر، إننى هنا باسم ٨٦٠ طالبًا هم عدد طلاب المدرسة، وغيرهم ملايين من شباب مصر الثائر، نطالب بعدم محاكمة هذا البطل سليمان خاطر. وشكرًا.

□□□

هذا هو نص الخطاب الذى تلقيته من الطالب شريف محمد الإسكندرانى الطالب بالصف الثانى الثانوى (القسم الأدبى) بمدرسة إدكو الثانوية العامة وأمين جماعة الصحافة بالمدرسة، لم أحذف منه كلمة، ولا حرفا، ولا حتى نقطة واحدة.

وأعترف منذ البداية أننى لمست فى كلماته مشاعر الصدق وهو يعبر بأمانة عن تفكيره وتفكير زملائه، بل تفكير بعض شباب مصر الذين كان خطأ الصحافة القومية معهم أنها لم تتصد للموضوع منذ البداية، لكى تساعد هذا الشباب كى يتابع على أرض الحقيقة تفاصيل ما يجرى، وبدلا من ذلك تركناهم عدة أسابيع يجمعون معلوماتهم من بعض صحف المعارضة التى تحاول استغلال أى موضوع لتحويله إلى قنبلة ناسفة، تستفز بها العواطف المشحونة التى تقرأ العناوين أكثر مما تقرأ المضمون، ولديها استعداد طبيعى بحكم رواسب قديمة، وأيضا حديثة، للتعاطف مع كل من هو ضد إسرائيل.

□□□

عزيزى شريف..

إننى أشكر لك خطابك وصراحتك التى إن عبرت عن شىء فعن حب كبير لمصر.. هذا الحب الذى يجعلنا نحدد مواقفنا، ويدفعنا فى بعض هذه المواقف إلى التضحية بأغلى ما نملك.. هذا الحب الذى نقدم قربانًا له، ونحن راضون فخورون، لقمة العيش التى نأكلها، والبيت الذى نسكنه، والروح التى أودعها الله أجسامنا..

رسالتك يا عزيزى تنبض بهذا الحب الكبير لمصر.. وصدقنى إذا قلت لك إننى أيضا مثلك عاشق مصر.. لا أريد أن أضيف وأقول أكثر من حبك لها، ولكننى أتواضع وأقول مثل حبك لها.. ولكن السؤال أولا يا عزيزى شريف، ويا عزيزى كل شاب مصرى، ويا عزيزى كل محب لمصر.. السؤال أولا هو: أى مصر هذه التى نحب ويجب أن نحب؟ مصر القانون أم الفوضى؟ مصر التحضر أم الهمجية؟ مصر العدالة أم الظلم؟ مصر العقل المدرك والمعرفة أم مصر العاطفة العمياء والجهل؟

إن الذين يحبون مصر الفوضى لا يحبونها ولكنهم يقتلونها.. والذين يفضلون مصر الهمجية لا يعشقونها ولكنهم يكرهونها، والذين يريدونها مصر الظلم والجهل والعواطف العمياء لا يحسنون إليها، ولكنهم يحاولون دفنها.

ولكن لأن مصر ليست ابنة اليوم، ولا هى نتاج تاريخ ضحل، فإنها ستظل ياعزيزى شريف، وإلى أبد الدهر، مثل البحر الذى مهما حاول الذين يلطخون صفحة مياهه، فإن أمواجه تطهر صفحته من كل ما علق به من شوائب لتطردها إلى الشاطئ البعيد.. وستبقى أعلامها العالية دومًا رمزًا للخير.. والعدالة.. والقوة.. والنور.. والحضارة..

□ □ □

عزيزى شريف:

وسامحنى إذا طالت مقدمتى فى الرد عليك، أو تصورت أننى سوف أحاول مخاطبة عواطفك، فحديث العاطفة لحظات، أما حديث العقل

فسنوات.. وأنا أريد أن أخاطب عقلك الذى يتم فى هذه السن تشكيله، فغدا ستصبح أنت وكل زملائك قادة هذا البلد، أما جيلنا فهو إما راحل عن دنياكم، وإما سيكون أسير أفعالكم وتفكيركم.

□□□

عزيزى شريف:

ما هى وقائع ما حدث؟

لن أنقل لك من محضر، ولا من مصدر تشك فى أنه «طبخ» العملية حسب هواه..

سوف أنقل لك عزيزى شريف، وعزيزى كل شريف فى مصر من صحيفة «الأهالى» صحيفة الحزب التقدمى، وموقفها واضح من القضية.. موقفها المعلن هو جمع التوقيعات للوقوف إلى جانب سليمان خاطر، والمطالبة بعدم محاكمته، والاعتراض على تقديمه لمحاكمة عسكرية، وتحويله إلى بطل فى ضمير هذا الشعب وتلك الأمة.

أنقل لك عزيزى شريف من عدد الأهالى الصادر يوم ١٨ ديسمبر الماضى فى الصفحة السادسة تحت عنوان: التفاصيل الكاملة لحادث رأس برقة، ما يلى:

وطبقا لرواية سليمان - التى أمن عليها زملاؤه فى مرحلة من التحقيقات - فإنه من موقعه فى السفح المحيط بالكشك صرخ فى الصاعدين بالإنجليزية قائلا: Stop .. No Passing (أى قفوا.. ممنوع المرور) لكنهم على عكس المعتاد لم يستجيبوا للتحذير، وواصلوا الصعود برغم أنه كان قد صوب بندقيته إليهم، فأطلق عدة طلقات فى الهواء للتحذير، بينما أخفت المرتفعات والمنخفضات أشخاص الصاعدين، حتى فوجئ بأحدهم يطل عليه من صخرة مرتفعة يستقر تحتها العلم.. بينما كان هو مايزال فى مكانه فى السفح المحيط بكشك مركز المراقبة فى مركز منخفض عنه. وكان لايزال يوجه طلقاته إلى أعلى على سبيل التحذير، فأصاب بعضها أول القتلى، وبعدها فقد سليمان سيطرته على نفسه، وواصل إطلاق النار

من مكانه الثابت، وأفقد الرعب الصاعدين سيطرتهم على أنفسهم
فأخذوا يعدون فى مرمى النيران التى أدركت سبعة منهم، وفر أربعة،
بينما ظلت طفلة صغيرة على قمة التل، دون أية إصابة..

هذا يا عزيزى شريف وعزيزى كل مصرى، وصف جريدة الأهالى لما حدث بالكلمة والحرف.. وهى الجريدة التى كما قلت تحاول أن تحيط سليمان خاطر بالبطولة وتلبسه ثياب الذين دافعوا، كما تقول يا عزيزى شريف فى خطابك، عن حرمة أرضه من منطلق غيرته الوطنية والدينية ضد ما يفعله الإسرائيليون بأرضنا من مظاهر الفساد!

الحكاية بمنتهى البساطة ومن واقع ما هو منشور كما يلى:

١ - الجندى سليمان خاطر مكلف بالحراسة فوق نقطة عالية من أرض مصر، تطل على منطقة يخرج ما تحتها عن حدود مصر. وهذه المنطقة عبارة عن شاطئ يقصده السياح من مختلف الجنسيات للاستمتاع بشاطئ البحر.

٢ - شاهد بعض السياح يتسلقون صخور التل الذى يقف فوق أعلى نقطة فيه.

٣ - صوب بندقيته ناحيتهم وحذرهم بالابتعاد.

٤ - لم يسمعوا تحذيره وواصلوا الصعود.

٥ - وجه طلقاته إلى أعلى، فأصاب بعضها أول القتلى.

٦ - بعدها فقد سليمان خاطر سيطرته على نفسه - وأضع ألف خط تحت هذه الجملة - وواصل إطلاق النار من مكانه الثابت.

٧ - سمع المتسلقون طلقات النيران، فأصابهم الرعب، وأخذوا ينطلقون هاربين.

٨ - بالمصادفة وهم يجرون رعبًا وهلعًا أوقع سوء الحظ بعضهم فى مرمى النيران المنطلقة من بندقية سليمان بعد أن فقد سيطرته على نفسه.

٩ - نتيجة لذلك أصابت النيران سبعة قتلى.

١٠ - طفلة صغيرة تجمدت من الخوف وبقيت فى مكانها فوق التل فلم تصب.

□□□

عزيزى شريف، وعزيزى كل شريف مصر..

إذا أضفت إلى هذا السيناريو للحظات الحادث، كما وقع وبحسب وصف جريدة «الأهالى» المصرية، أن هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يصعدون التل كانوا يرتدون ملابس الاستحمام.. أى أنهم كانوا أشخاصًا بلا سلاح يخفونه أو يبرزونه.. وأنهم كانوا مجموعة من تسعة أطفال وبعض النساء والرجال الكبار سناً، قتلت ٤٩ رصاصة انطلقت من بندقية سليمان خاطر أربعة أطفال منهم وامرأتين ورجلا مسناً..

وإذا أضفت إلى ذلك أن سليمان خاطر له شهود فى موقعه، وأن منظر السياح الأجانب فى الأرض التى يطل عليها هو منظر مألوف إليه.

وإذا أضفت أيضا معرفة سليمان خاطر بأن هؤلاء السياح الذين يصلون إلى المنطقة ليسوا جميعا من الإسرائيليين، واعترافه فى التحقيق بنفيه معرفة أن هؤلاء الصاعدين إلى التل كانوا من الإسرائيليين، وأنهم لابد كما تعود أن يراهم، من جنسيات مختلفة..

وإذا أضفت أكثر من هذا اعتراف سليمان خاطر بأن أحدًا من الذين شاهدهم يصعد التل لم تصدر منه إهانة موجهة إليه أو إلى بلده، أو إلى أى شخص آخر.

إذا أضفت كل هذه الوقائع، فإننى باسم مصر القانون والحضارة والنور والعقل والقوة والدفاع عن الكرامة والحق.. باسم مصر التى نقبل بكل الرضا أن نهبها حياتنا أسألك: هل ترى فيما حدث بطولة حقيقية تزين صدر مصر؟

هل تساوى سليمان خاطر فى «معركته» التى هاهى ذى وقائعها، مع أى جندى مصرى فرض عليه الاستسلام فى ٦٧، وحارب وانتصر فى ٧٣؟

هل هذه هى البطولة الجديدة التى تريد أن تضعها فى صف واحد وصفحة واحدة وكتاب واحد مع بطولة الشاويش محمد بطل ٥٦، وحسنى مبارك والجمسى وأحمد إسماعيل وعبد الحليم أبو غزالة، والبطل الذى رفع العلم فوق خط

بارليف، والجندى المقاتل الذى ارتفع صوته بصيحة الإيمان «الله أكبر» يوم عبر وانتصر فى ٧٣ بقرار شجاع من قائد شجاع؟

هل تساوى يا عزيزى شريف الجندى الذى فقد سيطرته على نفسه، وأخذ يطلق النار دون وعى، مع الذى اعتقل عساف ياجورى، والذى دفن أسطورة اليد الإسرائيلية الطويلة تحت رمال سيناء؟

هل تريد أن تضع فى ملف التاريخ البطولى المصرى من واجه الدبابة فى معارك الحرب، مع من واجه الطفل فى حالة السلام، ومن سدد بندقيته ليصيب قائدًا أو يسقط طائرة، مع من أطلق الرصاص من بندقيته دون وعى؟

ليس بينى وبين سليمان خاطر يا عزيزى شريف أية خصومة.. ولكن الخصومة إذا أردت مع الذين يريدون أن يشوهوا بطولات مصر، ويضيفوا إليها أبطالا بغير بطولة، وشجعانًا بلا معركة، ورموزًا بلا معنى.

الخصومة مع هؤلاء الذين يجعلوننى أقول هذا الكلام ضد جندى مصرى أفلتت منه فى لحظة ما أعصابه وطلقاته، وكان أقصى ما نستطيعه له هو أن نستسمح قضاته فى أن يكونوا رحماء به، فإذا بهم يصورونه لنا بطلا مطلوبًا من كل جندى مصرى - كما سمعت فى صوت مصر العربية - أن يكون مثله بطلا!

هل عقمت مصر من أية بطولة حتى لم يعد أمامنا غير هذا النموذج نغلق عليه ضمائرنا، ونضمه بجفون عيوننا، ونحيطه بحب قلوبنا؟

إن البطل هو ضمير أمته.. وهو الرمز الأسطورى الذى تصطلى بحكاياته نار الوطنية فى النفوس.. وهو السطور التى من معانيها الجميلة نربى أولادنا ونعلمهم العطاء والتضحية والفداء.

فهل هذا يا عزيزى شريف هو ذلك البطل الذى تريد أن يأتى يوم تجلس فيه إلى ابنك، عندما تكبر ويصبح لك هذا الابن، وتحكى له حكاية «البطل خاطر» الذى قتل أربعة أطفال كانوا يصعدون التل بملابس الاستحمام، وهو فوق التل يوجه إليهم بندقيته، وقد قتلهم من الخوف قبل أن تقتلهم رصاصاته؟

هل هذا يا عزيزى شريف هو البطل الذى تريد أنت شخصيًّا أن تكبر وتنمو وتصبح مثله؟

□ □ □

عزيزى شريف..

ومن الوقائع فإننى أنتقل بعد ذلك إلى مناقشة ما أثير حول سليمان خاطر من المطالبة أولا بعدم محاكمته، والاعتراض ثانيًا على محاكمته أمام القضاء العسكرى، وليس أمن دولة - كما تقول فى خطابك - لأن الأوراق واضح أنها مختلطة.

وقد لا تعرف يا عزيزى شريف أن دراستى كانت القانون.. ولهذا أرجو ألا تعجب إذا وجدت لدى بعض معلومات مازلت أذكرها عن هذا القانون الذى درسته، بالإضافة إلى أننى كأى مصرى مخلص حاولت أن أسأل المتخصصين وأستمع إليهم وأعارضهم لأعرف منهم، ثم أترك لعقلى مهمة التفكير والوصول إلى ما قد يكون صحيحًا، وهو ما أطلبه منك.. فلم تشهد مصر فترة أسوأ من فترة تعطل فيها العقل، وتجمد فيها التفكير.

□ □ □

عزيزى شريف..

إن فى القانون - وهذه معلومة يجب أن تعرفها - ما يسمى «بالتكييف القانونى» لأية جريمة، وهى عبارة تعنى توصيف أى عمل يقع تحت طائلة القانون، بصرف النظر عن الظروف أو البواعث أو الأهداف التى وقع من أجلها هذا العمل.

هناك مثلا من يسرق جوعًا، ومن يسرق جشعًا، ومن يسرق مرضًا.. ولكن الثلاثة - بصرف النظر عن البواعث - جريمتهم القانونية «السرقة».

هناك أيضًا من يقتل من أجل المال، أو من أجل الدفاع عن النفس أو العرض، أو لسبب ظروف نفسية خاصة.

ولكن بصرف النظر عن البواعث والأهداف فالجريمة فى جميع الأحوال - وبحسب تكييفها القانونى - «جريمة قتل».

وبصرف النظر عن أية أسباب نفسية، أو ظروف جغرافية، فإن ما ارتكبه سليمان خاطر فى دائرة التكييف القانونى يقع تحت مسمى «ارتكاب جريمة قتل».

استبعد الظروف والأسباب والدوافع وانظر إلى القتل مجردًا.. فماذا تسميه؟
الإجابة: جريمة قتل!

إن السؤال التالى هو: ماذا بعد؟

ولكى أعفيك من التفكير، فإن الدولة فى مواجهة أية جريمة ليس أمامها غير خيارين: أن تنفى وجود العدالة والقانون والسيادة على أرضها، وتترك الجريمة بلا سؤال أو تحقيق أو محاكمة، أو أن تسلك الطريق التقليدى - ولا أقول المتحضر - المعمول به فى كل دول العالم، وتتخذ إجراءات التحقيق والاستجواب والمحاكمة فيما جرى من خطأ أو قتل.

والذين يقولون بعدم محاكمة سليمان خاطر من البداية يعنون - لا أعرف عن حسن أو سوء قصد - ما يلى:

١ - أن تتنازل مصر عن أهم مظاهر سيادة الدولة، وهو ما يعنى تطبيق قانونها على ما يقع فوق أرضها.. ولما كان القانون المصرى - كما تعرف ويعرف كل مواطن - يستوجب مساءلة ومحاكمة من يرتكب جريمة قتل بصرف النظر عن الظروف والأسباب والدوافع، كان عدم تطبيق القانون المصرى مع سليمان خاطر تنازلا من الدولة عن حقها فى مباشرة سيادتها وتطبيق قوانينها على ما يقع فوق أرضها من جرائم.

٢ - أن هذا التنازل من جانبنا عن تطبيق قوانيننا، يعطى الآخرين حق التطاول على السيادة المصرية بدعوى الانتقام لما حدث، أو تطبيق ما اتفقت عليه الأعراف الدولية من قواعد، ولك أن تتصور نتيجة ذلك لو حدث.

٣ - أن هذا التنازل عن تطبيق قوانيننا فوق أرضنا، يعنى بصورة أخرى تنازلنا عن حقنا فى أن يجد أبناؤنا المصريون فى الدول الأجنبية ما يجب أن يلقوه من حماية وعدالة عند تعرضهم لأى اعتداء.

أخلص من هذا يا عزيزى شريف إلى أن مصر عندما أحالت سليمان خاطر

إلى التحقيق والمساءلة لم تكن تتخذ إجراء غير عادى، ولا كما يقول البعض حضارى، وإنما إجراء تقليدى يدخل فى ألف باء السيادة والقانون لأية دولة.

□□□

عزيزى شريف..

إن السؤال بعد ذلك هو: هل تعرض سليمان خاطر لأى ضغوط أو حتى إرهاق نفسى فى التحقيق؟

من الواجب أن يعود الذين يشككون فى ذلك إلى وقائع التحقيق، وسوف يدهشهم ما ورد على لسان المحقق وهو يسأل سليمان خاطر أكثر من مرة:

هل تشعر بالتعب؟ هل تريد أن تستريح بعض الوقت؟

وكان سليمان يرد شاكرًا للمحقق اهتمامه الفائق براحته.

ولسوف يقال يا عزيزى شريف إن إجراءات التحقيق مع سليمان خاطر بدأت أول ما بدأت أمام النيابة العامة، ثم انتقلت بعد ذلك إلى النيابة العسكرية، فما الذى أحدث هذا الخلط؟

أقول لك وفى مصر آلاف المحامين والقضاة والعارفين بالقانون: إنه فى إجراءات التحقيق الأولية كثيرًا ما يحدث الخلط بين اختصاصات جهات التحقيق المدنية والعسكرية، بمعنى أن تبدأ جهة مدنية التحقيق فى واقعة تجد أنها من اختصاص القضاء العسكرى فتحيلها إلى الجهة الخاصة بتولى التحقيق العسكرى.. وأيضًا يحدث أن تبدأ جهات عسكرية التحقيق فى واقعة تجد أنها ليست من اختصاصاتها، فتحيلها إلى سلطات تحقيق مدنية.. عملية البداية فى التحقيق ليست هى التى تحدد الاختصاص، وإنما يستشفها المحقق فى أثناء التحقيق، وهذا ما حدث بالفعل مع سليمان خاطر.. فالتحقيق معه بدأ أمام النيابة العامة، ثم عندما وجدت هذه النيابة أنها ليست الجهة المختصة أحالتها إلى زميلتها العسكرية.

وأقول زميلتها العسكرية لأكثر من سبب..

فالذين يحققون فى النيابة العامة درسوا القانون وتخصصوا فيه واحترفوه عملا لهم، وكذلك فى القضاء العسكرى.

كل الذين فى هذا القضاء العسكرى من محققين وقضاة، درسوا القانون وتخصصوا فيه واحترفوه عملا لهم لا رقيب عليهم فيه إلا ضمير القاضى.

وإذا كان هناك قانون ينظم القضاء المدنى ويحدد إجراءاته وقواعد اختيار قضاته، فهناك أيضًا قانون ينظم القضاء العسكرى من نيابة وإجراءات وقضاة..

□□ فى كلا القضاءين - العسكرى والمدنى - محققون وقضاة محترفون لا عمل لهم إلا التحقيق والحكم.

□□ وكلهم فى القضاء العسكرى والمدنى مصريون.

□□ والاثنان: العسكرى والمدنى، لكل منهما ضماناته ومبادئه التى يحددها قانون أصدره مجلس الشعب.. فالقضاء المدنى أصدر البرلمان المصرى قوانينه، وأيضًا القضاء العسكرى أصدر قوانينه البرلمان المصرى..

الخلط الذى يحدث دائما هو تصور البعض أن المحاكمة العسكرية هى من نوع المحاكمات الاستثنائية التى عرفها تاريخنا القريب، وكان يجلس فيها عسكريون لا علاقة لهم بالقانون أو القضاء مثل محكمة الدجوى وغيره.. وكانت تصدر منها أحكام لا تستند إلى قانون.

ونتيجة هذا الخلط استطاع الذين يزايدون بمشاعر الجماهير، تصوير المحكمة العسكرية التى أحيل إليها سليمان خاطر بأنها من هذا النوع الذى يتم تشكيله لقضية معينة.

□ □ □

عزيزى الطالب شريف..

هل كان القضاء العسكرى هو المختص بمحاكمة سليمان خاطر أو أن محاكمته كانت واجبة أمام القضاء المدنى، وغيرت الدولة رأيها لأسباب معينة؟

إن الذى يحدد هذا ليس أنا أو أنت أو أى فرد فى مصر، لسبب بسيط.. لأن هناك قانونا بالفعل يحدد ذلك..

وأسألك وأرجو أن تكون أمينًا فى إجابتك:

□□ هل الذى ارتكب الجريمة بصرف النظر عن الأسباب عسكرى أو مدنى؟

□□ هل المنطقة التى وقعت فيها الجريمة: منطقة عسكرية أو مدنية؟

لعلك الآن أدركت وبوضوح شديد، القضاء الطبيعى الذى يجب أن يحاكم أمامه سليمان خاطر، فهل انتهت القضية وأصبح كل شىء واضحًا؟

إننى أقول لك: لا.. لأن هناك قضية أخرى..

القضية الحقيقية - وأصارحك عزيزى شريف - ليست قضية سليمان خاطر، القضية الحقيقية أن فى داخل كل منا ثورة غضب دفينة ضد إسرائيل، القضية الحقيقية أننا بصورة عامة وكرأى عام وكشعب لا نحس بالرضا عن السلوك الإسرائيلى تجاه مصر، وتجاه الفلسطينيين الذين لهم حقوق مشروعة، من حقهم أن تعود إليهم..

القضية الحقيقية أن هذا السلام الذى وقعناه مع إسرائيل لم يفصل مشاعرنا ولا عواطفنا عن هؤلاء الذين يفرض عليهم الحكم الإسرائيلى فى بلادهم كل مظاهر القمع والإرهاب.. ولا الذين تطاردهم غارات إسرائيل وتتعقبهم بالذبح والتشريد..

القضية الحقيقية أن معاهدة السلام التى فرضت وجود منطقة عازلة بيننا وبين إسرائيل، لم تستطع أن توجد هذه المنطقة بيننا وبين العرب والفلسطينيين، برغم كل السهام المسمومة التى تصوب إلينا من هؤلاء الذين نضعهم فى موقع الإخوة.

القضية الحقيقية يا عزيزى شريف ، أننا جميعًا، أنا وأنت وهو وملايين المصريين، فى داخلنا مرارة مما تمارسه إسرائيل.. وأمام أى حادث تتعرض له إسرائيل فإننا لا نشعر أبدًا بالتعاطف معها بل ضدها..

فهم تصوروا السلام عقدًا، ونحن نؤمن أنه عمل.
هم تصوروا التطبيع سفارة، ونحن نؤمن أنه سلوك.
هم تصوروا السلام مصر، ونحن نؤمن أنه فلسطين.
هذه هى القضية الحقيقية..

والشعوب يحدث لها كثيراً أن تخلط القضايا.. تماما كما يحدث مع سليمان خاطر الذي جعلنا منه قضية ليس لها موضوع، وبطلا ليست فيه بطولة!

□□□

عزيزي شريف..

إنني لا أطالبك بأن تبرد ثوراتك تجاه ممارسات إسرائيل.. ولكنني أطالبك ألا تخلط أوراق القضايا.. حباً لمصر التي نحن على استعداد أن نضع أرواحنا أمام عزتها وارتفاع رايتها ثمناً رخيصاً..

دمت لمصر يا شريف..

ودام كل محب مخلص لها..

مصر الحق.. مصر العدالة.. مصر القوة.. مصر الخير.. مصر القانون..

وبعد..

فهذه هي حكاية رسائل إلى أي شاب..

إنها رسائل خيالية، لكن الخيال في كل الأوقات كان له ظل من حقيقة.

صلاح منتصر

ماذا تنتظر لتغير مفهوم المجتمع ؟

عزيزى شريف:

لعلك تعرف أننى بحكم عملى قد أتيحت لى فرصة زيارة عدد كبير من دول العالم.. وفى الصيف الماضى كانت مدينة أنسبروك فى غرب النمسا من بين المدن التى زرتها لأسباب صحية.. وأنسبروك من مدن النمسا الشهيرة بسبب موقعها فى منطقة الجبال والتلال الخضراء الشهيرة فى النمسا باسم منطقة التيرول.. وزوار هذه المدينة شتاء أكثر كثيراً من زوارها فى فصل الصيف؛ بسبب رياضة التزحلق على الجليد التى تجتذب الكثيرين من عشاق هذه الرياضة، وبسبب اعتدال جوها فى هذه الفترة؛ فهى تجمع بين الشمس والجليد فى وقت واحد..

ليست هذه هى القضية على كل حال، ولا هى موضوع رسالتى إليك، وإنما أردت أن أنقلك معى للحظات إلى جو هذه المدينة التى يحتكر بيع الصحف فيها الشباب المصريون.

وفى أوروبا فإن القاعدة أن يذهب المواطن إلى الصحيفة ولا تذهب الصحيفة إليه إلا فى البريد.. أما الباعة المألوف شكلهم فى شوارع مصر والذين ينادون على الصحف والمجلات التى يحملونها فهذا أمر غير مألوف فى أوروبا وأمريكا.. فالصحف تباع فى أكشاك خاصة بذلك، وفى أمريكا توجد أجهزة خاصة موجودة على نواصى الشوارع يقصدها مشترى الصحيفة، ويضع فى ثقب خاص ثمن الصحيفة ثم يفتح باباً زجاجياً ويلتقط صحيفته.

ولكن فى أنسبروك وفى فيينا، بل أكاد أقول لك فى كل مدن النمسا، يسرح الشباب المصرى بالصحف وينادى عليها، ويقتحم المطاعم وواجهات دور السينما والمسارح والأوبرا، ويقفون على نواصى الشوارع عند إشارات المرور وفى الميادين، لالتقاط الزبائن فى سياراتهم فى عز البرد والثلج وتحت الأمطار!

وهذا الشباب المصرى منهم الكثيرون من خريجى الجامعات، وهناك مصريون آخرون فى النمسا يعملون فى المطاعم فى غسل الصحون والأطباق.. أو سائقين لسيارات تاكسى أو جرسونات أو باعة..

وفى أقصى شمال أسكوتلندا قبل خمسة أعوام، فوجئت بأن الجرسون الذى يخدم فى هذا المطعم البعيد مصرى..

ومن حوارى معه عرفت أنه خريج كلية التجارة، وأن الصدفة وحدها هى التى جاءت به إلى هذا المكان، وأنه تدرج من صبى مرمطون يخدم فى المطبخ إلى جرسون أول!

هل لى أن أسألك عزيزى شريف: لماذا؟

لماذا يقبل الشباب المصرى خريجو الجامعة حملة الليسانس والبكالوريوس.. العمل فى هذه الأعمال فى الخارج ولا يمارسونها فى داخل بلادهم مصر؟

أعرف مقدمًا إجابتك، فسوف تقول لى إنهم هناك فى الغرب يحترمون كل أنواع العمل، فلا يعيب الإنسان أن يعمل جرسونًا أو جزارًا أو ماسحًا للأحذية، وإنما يعيبه أن يكون عاطلًا..

أعرف أنك سوف تقول لى إن طبيعة المجتمع المصرى حتى اليوم ما زالت تضع للمكتب والكرسى والحجرة التى يجلس فيها الموظف، والساعى الواقف على الباب، والأجراس التى يدق عليها، وغير هذا من مظاهر الوظيفة الأخرى لكل هذا قيمته.. وإنه بالنسبة للمجتمع المصرى، فإنه يعتبر مثل هذه الأعمال إذا قام بها الشاب خريج الجامعات عيبًا، وإن نصيب هذا الشاب هو الاحتقار أو التأفف!

أليس هذا ما سوف تقوله؟

وعلى فرض أن هذا صحيح، وأن مجتمعنا ما زال «يستعرُّ» من خريج الجامعة إذا عمل سائقا للتاكسى أو جرسونا فى مطعم أو ميكانيكيا أو نقاشا أو سباكا أو مكوجيا أو عاملا فى محطة بنزين..

حتى على فرض أن هذا صحيح فمن الذى يستطيع تغيير ذلك؟

من الذى يمكنه تغيير مفاهيم المجتمع المصرى تجاه أنواع العمل المختلفة، ويجعله ينظر إلى أى عامل بنفس النظرة التى ينظر بها مجتمع الغرب إلى كل عامل؟

ألست أنت يا شريف وكل زملائك الشبان؟

إن الشباب فى كثير من المفاهيم يعنى الثورة، وإذا كان مجتمعنا يحتاج إلى ثورة فى تغيير مفاهيمه تجاه العمل، فصدقنى يا شريف أنه لن يقوم بهذه الثورة غيركم أنتم الشباب..

ولا تتصور، كما قد يحلو للبعض للتهرب من مسئولياته، أن ذلك سوف يكون صعبًا.. ففى حياتنا عادات وتقاليد تربى عليها أجدادنا، ولم يتصور أحد أنها سوف تختفى، ولكنها اختفت وأصبحت نكتة نضحك عليها اليوم عندما نذكرها.

من كان يتصور أن شابا يمكنه أن يخرج إلى الشارع بدون طربوش، كما كنا نفعل إلى ما قبل ٤٠ سنة، عندما كان خروج أى رجل بدون طربوش أشبه بخروجه عاريًا؟

من كان يتصور أن موظف الدولة سوف يذهب إلى عمله فى الصيف بالقميص والبنطلون، وأن وزير هذه الأيام سوف يلبس «التيشرت» وهو الذى كان حتى عشرين سنة لا تظهر له صورة بغير البدلة الكاملة وربطة العنق؟

من كان يتصور أن البيت المصرى الذى كان يقوم بخبز خبزه فى داخل البيت يشترى هذا الخبز من الشارع؟

من كان يتصور أننى عندما أحتفى بأى ضيف أدعوه للغداء أو العشاء فى مطعم بدلًا من بيتى؟

وغير ذلك لديك مثال آخر.. جرسونات المطاعم فى الفنادق الكبرى. فحتى

افتتاح فندق هيلتون فى نهاية الخمسينات لم تكن هناك فتاة مصرية واحدة جرؤت على العمل فى مطعم.. وعندما افتتح فندق هيلتون كانت كافتيريا الفندق أول كافتيريا فى مصر تعمل فيها الفتاة.. وكان كثيرون من المصريين يقصدون هذه الكافتيريا للفرجة على البنت المصرية الجرسونة!

هل تعجب اليوم لمئات الفتيات فى كل مطاعم الفنادق؟ أليست مشاهدتهن أصبحت أمرًا عاديا مألوفًا؟

من الذى فعل ذلك؟

فعلته الفتاة المصرية قبل المجتمع.. فهى التى فرضت التغيير على هذا المجتمع، وهى التى أجبرته على تغيير نظرته من الانبهار إلى الاحترام..

ولهذا لا تعجب يا شريف إذا قلت لك إنك أنت وكل زملائك الشباب هم أملنا «تحت العواجيز» فى تغيير المجتمع وفى فرض احترامكم عليه..

إننى أتطلع إلى مجتمع مصر وقد تحرر شبابه من عقدة الوظيفة، وعقدة الكبرياء الفارغة التى تصيب خريج الجامعة، تاركًا عشرات الأعمال التى يمكن أن يحقق من ورائها كسبًا ماديا كبيرًا للأميين، حتى أصبحت الأمية فى مصر ميزة تعطى صاحبها حق كسب الكثير، بسبب تخلى أصحابها عن مظاهر الأنفة ومشاعر الغطرسة التى يصاب بها المتعلمون خريجو الجامعات!

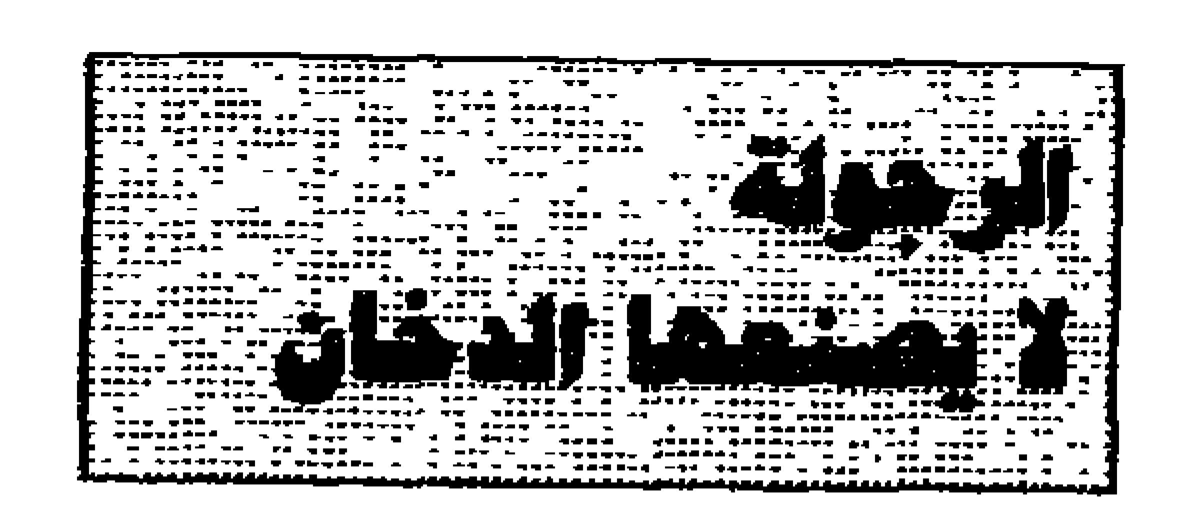
وثق يا شريف أن هذا الوضع لن يطول.. فالوظائف الحكومية أصبحت محدودة، وهناك خريجون يمضون خمس سنوات قبل أن يصلهم خطاب التعيين، وربما يمضون فى السنوات القادمة أضعاف هذه المدة إذا تمسكوا بالعمل الوظيفى.

عزيزى شريف:

لماذا لا يبادر شبابنا بالتغيير؟ أليس الشباب هو الثورة؟

لك كل تقديرى وحبى، وإلى لقاء فى رسالة قادمة بإذن الله.





الرجولة
لا يصنعها الدخان

عزيزى شريف:

منذ خمس سنوات فى مثل هذا الوقت تقريبًا، كنت فى زيارة للندن، عندما عرفت أنهم حددوا يوم ٩ فبراير لنشر دعوة تطوف كل إنجلترا، يطالبون فيها المدخنين بعدم التدخين فى هذا اليوم. مجرد يوم واحد يصومون فيه عن التدخين، ويجربون كيف تكون الحياة بغير سيجارة..

فى ذلك الوقت قبل ٥ سنوات، كان الحديث قد أصبح عاليًا عن الأضرار الرهيبة التى تحدث للمدخن، ولابد أن تعرف أن هذه الأضرار لم تكن معروفة حتى قبل عشرين سنة؛ وبالتالى لم تكن المجتمعات تهتم كثيرًا بقضية التدخين، بل على العكس كانت الحكومات تبدو كأنها تشجع مواطنيها على زيادة التدخين، بسبب رسوم الضرائب العالية التى تفرضها على السجائر، وتحقق من ورائها حصيلة وفيرة.

ولعلك لا تعلم أن علبة السجائر لا تكلف الشركة المنتجة غير ملاليم قليلة، وأن الجزء الأكبر من السعر يذهب إلى حكومات الدول، وفى بداية ظهور البترول فى دول الخليج العربى، وانتقال هذه الدول من دائرة دول الفقر إلى الانتعاش، فإن ثمن علبة السجائر فى أسواقها لم يكن يتجاوز خمسين مليمًا، لأن حكومات هذه الدول قررت التنازل عن الضرائب التى تفرضها الحكومات الأخرى على السجائر.

وأول تقرير طبى عن أضرار التدخين ظهر فى عام ١٩٦٤، ومنذ هذا العام بدأت الحرب بين أنصار المحافظة على صحة الإنسان وبيئته.. وشركات التدخين التى تكسب آلاف الملايين من وراء السم الذى توزعه فى لفائف بيضاء على ملايين المدخنين فى كل العالم!!

وقد كانت مشكلة التدخين - ولا تزال - أنه عمل مشروع غير محرم دينيا كما هو الحال بالنسبة للخمر.. ولكن مع تأكد الحكومات الغربية من الآثار الصحية الخطيرة الناتجة عنه، فإن هذه الحكومات قادت حربًا ضارية ضد المدخنين بهدف محاصرتهم وتقليل عددهم.

لقد كان واضحًا أن هذه الحكومات تحقق كسبًا من وراء التدخين، يتمثل فى الملايين التى تحققها من الجمارك التى تفرضها على السجائر، ولكن هذه الحكومات عندما حسبتها وجدت أنها فى مقابل هذه الملايين المعدودة والمحدودة تخسر أعز شيء يمكن أن تملكه وهو قوة مواطنيها وصحتهم وقدرتهم على الإنتاج.. اكتشفت هذه الحكومات أنها بسبب التدخين تخسر كل عام آلاف المواطنين الذين يصابون بأمراض القلب والسرطان والضغط والشرايين والسكر، وتتدهور صحتهم ويعتكفون للعلاج ويفقدون القدرة على العمل.. وكل هذا فى السن العظيمة التى يكون فيها عطاء الإنسان أكثر ما يكون..

وقد قامت هذه الحكومات أول ما قامت بإرغام شركات التدخين على وضع عبارة على كل علبة سجائر تحذر فيها المدخن من أضرار التدخين، ثم فى مرحلة أخرى طلبت الحكومات إلى هذه الشركات أن تضع على كل علبة عبارة «التدخين مضر بالصحة» ثم أخيرًا فإن كثيرًا من الحكومات لم تعد قانعة بهذه العبارة، وإنما طلبت أن تكتب شركات الدخان على إنتاجها ما يوضح قائمة الأمراض الخطيرة والعديدة التى تصيب المدخن..

وبالطبع فقد حاولت شركات التدخين مقاومة هذا الاتجاه، لكنها لم تستطع برغم ما تملكه من قوة مادية. ولو أن هذه الشركات كانت لديها ذرة شك واحدة فى أن التدخين لا يضر بصحة الإنسان، لأقامت آلاف القضايا ضد الحكومات التى أرغمتها على الاعتراف بخطورة ماتنتجه.

وهكذا أصبحت السجائر السلعة الوحيدة فى كل العالم التى يعترف منتجها بأنها خطر على من يشتريها؛ ومع ذلك فكما ترى هناك ملايين فى كل أنحاء العالم يتعاملون مع هذا السم الملفوف فى أوراقه البيضاء !!

وأنا ضد الذين يقولون إن التدخين لا يعطى صاحبه متعة؛ فالواقع أن المدخن يتمتع بمذاق السيجارة، ولكن ثمن هذه المتعة رهيب ومكلف صحيا وماديا، وأساس متعة المدخن سببه تسلل النيكوتين الموجود فى السيجارة إلى شرايين المدخن، وتشبّع الدم بها إلى نسبة معينة؛ بحيث إذا انخفضت هذه النسبة يحس المدخن بمن يدق أبواب جسمه وفكره، ويطالب بسيجارة أخرى.. وقد وصل إدمان البعض إلى حد تدخين ٨٠ سيجارة يوميا !! ولك أن تتصور ماذا يمكن أن يحدث لأى مدخن أمسك بهذه السجائر ودخنها سيجارة بعد سيجارة، ولم يغسل أصابعه أكثر من مرة.. إنك سوف تلحظ أن هذه الأصابع قد اصطبغت بلون أصفر، سرعان ما يتحول إلى لون أسود، وكل هذا فى خلال يوم واحد، فماذا لو استمر هذا المدخن يدخن أسبوعًا دون أن يغسل أصابعه.. ثم لك أن تتصور لون أصابعه.. ثم بعد شهر واحد.. ثم بعد سنة؟!

وأنا أقول لك ذلك لأن ما يحدث فى الأصابع يحدث مثله فى الرئتين، مع فارق أنه فى حالة الأصابع يستطيع الإنسان مداومة تنظيفها، أما فى حالة الرئتين فلا يقوم الإنسان بنظافتها.. وتتراكم طبقات القطران والنيكوتين حتى تبدأ الأعراض الواضحة فى الكحة المشروخة، التى نستطيع أن نميز بها كل مدخن، ونكتشف كم هى تمزق صدره.. كما لو أنها سكين تحاول إزاحة طبقات السواد الكثيفة التى تراكمت فوق رئتيه لكى تشم الهواء..

إن حرية الإنسان فى الدول الغربية مثل سويسرا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا وأمريكا وغيرها تفوق كل شىء.. حرية الفرد فى هذه الدول فوق كل شىء، ولكن حكومات هذه الدول برغم إيمانها المطلق بحرية الفرد، قررت التصدى لحرية التدخين، فالمدخن لا يستطيع اليوم أن يدخن سيجارته فى أى أتوبيس أو سيارة تاكسى أو مستشفى أو سينما أو حتى مطعم.. فهناك أقسام خاصة فى المطاعم لا يستطيع أن يدخن فيها الزبائن.. حتى الفنادق أصبح هناك نوع جديد

مخصص لغير المدخنين.. ووصل الأمر إلى إحساس المدخن بأنه إنسان منبوذ مضطهد!!

وكل هذا، كما قلت، فى دول تقدس حرية الفرد، وتحرص عليها، ولكن هذه الدول اكتشفت أنه بجانب حرية المدخن هناك حرية أغلى وأفضل.. هى حرية غير المدخن.. وإذا كان المدخن يهوى أن يقتل نفسه قتلا بطيئا، فإن هناك من يعشق أن يعيش ويتمتع بحياة سليمة، ويستنشق هواء نقيا خاليًا من الكربون المميت الذى يحويه دخان السجائر.. ولعلك قرأت أخيرًا أن غير المدخن إذا ابتلع دخان المدخنين الذى ينفثونه فى الهواء يتعرض لنفس الأخطار التى تصيب المدخنين، بل أكثر من هذا لعلك قرأت عن الأم الحامل وكيف أن جنينها يتأثر بالسجائر التى تدخنها!

ومشكلة التدخين الأخرى أنها تصيب من يتعلق بها بنوع من الإدمان الذى يجعل المدخن أسير السيجارة.. وما أكثر المدخنين الذين تجدهم فى «عز الليل» يتركون بيوتهم وهم يتجولون فى الشوارع بحثًا عن «كشك سجائر» مفتوح.

إنه نوع رهيب من الذل يحس به المدخن تجاه السيجارة.. إذلال للنفس وللصحة وأيضًا للجيب.. فلو حسب المدخن ثمن السجائر التى ابتلع دخانها، وحسب ثمن العلاج الذى سيضطر إليه لسداد فواتير الأطباء الذين سيزورهم، وروشتات الأدوية التى سيصرفها وغير ذلك، لوجد أنه سوف يضيع تقريبًا ثلث دخله على متعة.. أمتع منها بكثير ألا يدخن..

نعم أمتع من التدخين ألا تدخن.. فأنت فى هذه الحالة تشعر بأنك أفضل كثيرًا من هؤلاء المدخنين الذين دخلوا سجن السيجارة اللعين، وأصبح صعبًا عليهم الخروج منه..

أمتع من التدخين أن تجد نفسك غير مدخن.. جيوبك نظيفة، وأنفك نظيف، وفمك نظيف، وصدرك نظيف..

أمتع من التدخين أن تدخل بيتك فلا تشم فيه تلك الرائحة النتنة الخانقة التى تجدها فى بيوت المدخنين ويسممون بها أطفالهم..

أستح من التدخين أن تكون غير مدخن، فلا تسمع صوت الأوركسترا النشاز التي يسمعها المدخن وهو يصعد درجات السلم، أو عندما يجرى وراء الأوتوبيس، أو بعد مشوار سار فيه نصف ساعة..

أستح من التدخين أن تكون إنسانًا متحررًا من هذه العادة القبيحة، وألا تضطر – في بعض الأحيان – أن تغلق على نفسك الحمام لكي تدخن هربًا من الآخرين..

إن بعض الشباب – وقد كنت في سنه – يعتقد أن من علامات الرجولة أن يدخن.. وهناك مثل فرنسي يقول: في السن الصغيرة يدخن الكثيرون لكي يثبتوا لأنفسهم أنهم رجال، وفي السن الكبيرة فإنهم يحاولون الامتناع عن التدخين لنفس السبب!!

وأنا أقول لك بكل الإخلاص إن الرجولة ليست في سيجارة وولاعة.. بل على العكس..

كما أنه ليس صحيحًا أن السيجارة تساعد على التفكير، وإذا كنت تجد بعض الكتاب يدخنون فغيرهم كثيرون جدا لا يدخنون.. توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ومصطفى أمين والدكتور زكي نجيب محمود وأنيس منصور وغيرهم وغيرهم من الأسماء اللامعة في سماء الفكر والأدب.. كلهم لا يدخنون..

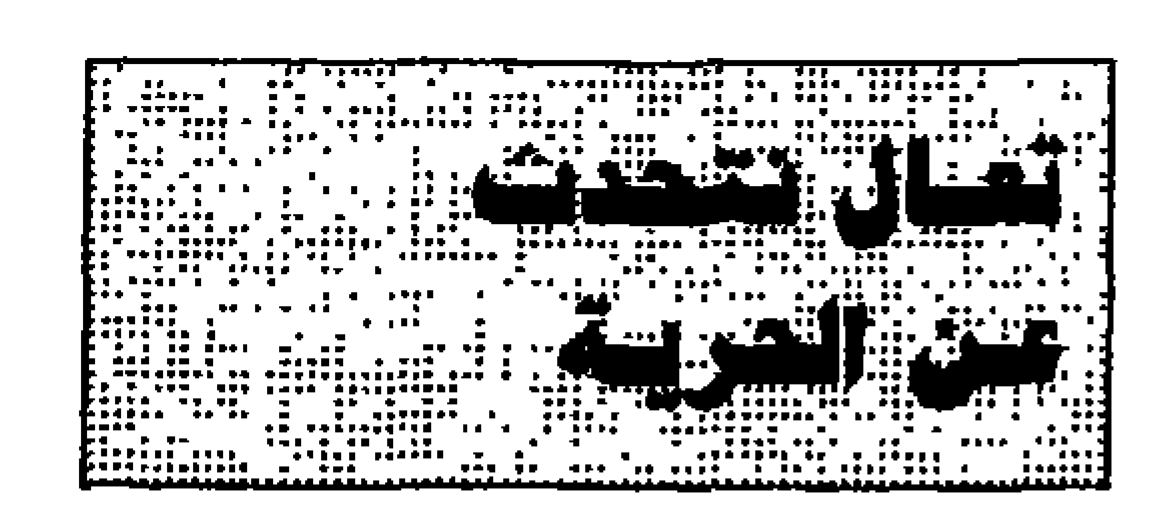
وقد ارتبط التدخين لفترة بنجوم السينما، ولكن أخيرًا بدأ هؤلاء النجوم يحاولون عدم التدخين.. حتى فريد شوقي الذي كان يدخن في اليوم الواحد مائة سيجارة، له اليوم ١٢ شهرا لم يدخن.. وقد اعترف لي بأنه كان ممسكا بالسيجارة بين أصبعيه، وكان يزور مدينة فرانكفورت الألمانية، وكان عليه أن يصعد أحد الأدوار عن طريق السلالم المتحركة، ولكن تصادف تعطل هذه السلالم، فاضطر إلى الصعود على قدميه، وفي منتصف الطريق وجد نفسه يستند إلى الحائط وهو يلهث، وعندما نظر خلفه وجد أن كل الذي صعده هو عشر درجات، ولكنها كانت بالنسبة له أشبه بمن جرى عشرة كيلو مترات، وفي اللحظة ألقى فريد شوقي السيجارة من يده و«قصفها» بقدمه.. وقرر ألا يعود إليها..

عزيزى شريف:

لست من هواة النصح والإرشاد، ولكننى فقط أردت أنٍ أضع أمامك بضعة سطور عن السيجارة والتدخين بمناسبة يوم ٩ فبراير، تاركًا لك حرية اختيار الطريق الذى تسلكه.. إن لك أن تأخذ تجارب الآخرين، ولك أن تعطيها ظهرك، فلن يدفع الثمن غيرك.. ولكن حبى لك يجعلنى أتمنى ألا تدفع هذا الثمن.. أن تدخره لأشياء كثيرة أخرى سوف تحتاج فيها إلى صحتك وإلى قوتك وإلى كل قرش تبدده دخانًا فى الهواء، وثق دائمًا أن الرجولة لا يصنعها الدخان، وإنما يصنعها كفاحك الذى ستواجه به الحياة..

لك حبى وأجمل الأمانى، وإلى أن نلتقى فى رسالة قادمة بإذن الله.. أرجو لك أطيب الأوقات..





عزيزى شريف:

أشكر لك كل رسائلك التى تتبادلها مع رسائلى، وأؤكد لك اهتمامى الكبير بكل ما تثير فيها من موضوعات، ولعلك تذكر أنك فى رسالتك الأخيرة إلىَّ قد ركزت على قضية حرية الصحافة، ربما بمناسبة الانتخابات التى سمعت عنها، والتى تجرى هذا الشهر فى نقابة الصحفيين.

والنقابة – كما تعرف – هى البيت الكبير الذى يضم زملاء المهنة الواحدة، وهى التى تحاول الدفاع عنهم وعن حقوقهم، وتوفير جو الأمان والاطمئنان الذى يجب أن يمارسوا فيه عملهم.

إنك فى حديثك عن الصحافة تبدو ثائرا، وتسألنى بطريقة واضحة فيها السخرية: هل صحافتنا التى يطلق عليها قومية حرة فعلا؟ ولماذا يا كتاب كل العصور – هكذا قلت – تتحدثون عن حرية وديمقراطية كل عصر تعيشون فيه، ثم ما إن يرحل قائد هذا العصر وتنتهى مهرجانات الرثاء الواجبة حتى تبدأ حملات الهجوم عليه والتشكيك فى كل موقف وكل تصرف وكل قرار اتخذه؟!

إنك فى رسالتك تشير إلى الصحافة الحزبية، وترى أن هذه الصحافة هى وحدها الصحافة الحرة الشجاعة على عكس الصحف القومية..

وصدقنى أننى لم أضق أبدا بأسئلتك ولا بأفكارك، بل على العكس سوف تعجب عندما تجدنى أشكرك عليها، لأنها تطمئننى على تفكير حر موجود لديك، وقدرة على التعبير عنه..

والتفكير الحر - كما لابد أن تعرف - هو أول درجات الحرية.. وقد تدهش إذا عرفت أن بعض المجتمعات تتعرض فى مسيرتها فى بعض الفترات إلى حد انعدام حريتها، وإلى درجة اختفاء حتى حرية التفكير عند أبنائها ومواطنيها، إما خوفا ورعبا من الحاكم وأجهزته، وإما لأن عقولهم قد امتلأت عن آخرها بما ترده أبواق وأجهزة دعاية الحاكم ليل نهار حتى لم يعد فيها مكان قادر على ممارسة التفكير الحر.. فى هذه الفترات التى يمر فيها المجتمع بمثل هذه الحالة، تصبح للأفكار أسقف خيالية بحيث يخشى المواطن أن تطول قامة أفكاره قليلا عن الحد المسموح به، فتصطدم بالسقف الوهمى المرسوم فى خياله..

وإذا كنت قد حدثتك عن التفكير الحر، كأول خطوة على طريق الحرية، فإن الخطوة الثانية هى التعبير عن هذه الأفكار بحرية.. ثم تأتى الخطوة الثالثة وهى نشر هذه الأفكار التى عبرت عنها بكل حرية لتصل إلى الآخرين.. وأحسب أننا الآن فى هذه المرحلة الأخيرة التى نستطيعها كما استطعت أنت أن تفكر بحرية، ثم تعبر عنها فى رسالة مكتوبة تبعثها إلىّ، ثم ها هى منشورة بكل معانيها..

هل الصحافة فى مصر حرة اليوم؟

إننى عندما أفكر فى تطور مراحل الصحافة المصرية منذ أصابها التأميم الذى حول ملكيتها إلى الدولة، وجعلها فى تصور البعض جهازا من أجهزتها، أجد أننا اجتزنا ثلاث مراحل مختلفة من ممارسة الحرية..

فى المرحلة الأولى كنا نمارس الحرية داخل غرفة مغلقة. ففى استطاعة أى منا أن يروح ويجىء فى هذه الغرفة بكل حرية، ولكن حدود حريته تقف أمام الباب المغلق.

وفى مرحلة ثانية تم فتح باب هذه الغرفة، وأصبح ممكنا أن تنتقل أقلامنا من غرفة إلى أخرى، لكن آخر حدودنا كان باب الشقة المغلق..

وفى مرحلة ثالثة تم فتح باب هذه الشقة، وأصبح فى إمكاننا أن نمارس حرية الحركة داخل الشقة، وأيضا على سلالمها الخارجية وصولا إلى باب البيت المطل على الشارع، وهناك من يقول إن هذا الباب المطل على الشارع لا يزال موصدا، وهناك من يقول إنه مفتوح، وإن إمكانية الخروج منه متوقفة على دبلوماسية

ورشاقة من يريد الخروج.. وسواء كان هذا أو ذاك فقد تغيرت بالتأكيد مساحة الحركة ومساقة الحرية..

وأنت تظلم الصحافة القومية إذا اتهمتها بأنها مجرد أكف تصفق للحاكم.. وأبواق مفتوحة لتكبير وتضخيم كلمات المسئولين.. ومن حقى أن أسألك: هل هناك قضية أو مشكلة أو موضوع يمس حياتك فى تعليمك أو صحتك أو تموينك أو طعامك أو شرابك أو مواصلاتك أو إسكانك أو اقتصادك أو تليفوناتك أو مرورك.. إلخ لم تتعرض له هذه الصحافة القومية بالنقد؟!

ودعنى أستخدم كلمة «النقد» حتى أفرق بين أسلوب الصحافة القومية والصحافة الحزبية، وهى - كما تعرف - صحف مفروض أنها «تعارض» الحكم بأمل وصول الحزب الذى تعبر عنه الصحيفة إلى هذا الحكم..

ولكن هل هذا هو موقف الصحافة القومية؟

إننا فى الصحافة القومية نعترف بشرعية النظام، ولكننا ننتقده.. فليس هناك حزب خفى أو جهة تعمل لحسابها، ونريد أن نغير النظام لكى يجىء هذا الحزب الخفى أو هذه الجهة التى تعمل لحسابها لتتولى الحكم.. ولهذا فإن الصحافة القومية لا تعارض الحكم ولكنها تنتقده.. لا تحاول أن تهدمه ولكن تحاول أن تبنيه..

لكن المشكلة أن هناك من يصور كل من يعمل فى الصحافة القومية بأنه عميل، وكل من يعمل فى الصحيفة الحزبية بأنه وطنى..

وأنا أريد أن أسألك: عميل لمن؟ ووطنى لمن؟

إن فينا أحيانا من ينسى أننا دولة مستقلة، وأن أى مواطن فى أصغر قرية من أفقر أسرة يمكن أن يصبح يوما رئيسا لمصر بتأييد من الشعب.. فأى عمالة تكون عندما يقف الصحفى إلى جانب هذا الحاكم وحكمه الوطنى المؤيد من الشعب؟

تقول إن الصحافة الحزبية حرة، وأريد أن أسألك بكل أمانة: هل قرأت فى أية صحيفة حزبية نقدا ولو بسيطا للحزب الذى يملكها، أو لرئيس هذا الحزب أو كبار مسئوليه؟

إذا كانت الإجابة بنعم فهى فعلا حرة، وإذا كانت بلا فالصحافة القومية تكون هى الحرة، لأنها الوحيدة التى تنتقد مالكها، والوحيدة التى تصل فى نقدها إلى حد القسوة على كبار المسئولين فى جهاز الدولة الكبير الذى يملك الصحافة.

هات لى صحيفة حزبية انتقدت رئيسها أو تعرضت لأى تصرف من تصرفاته! أليس معنى هذا أنها تعمل لحساب هذا الرئيس؟ لماذا إذن تكون فى رأيك وطنية وتكون صحافتنا القومية عميلة؟

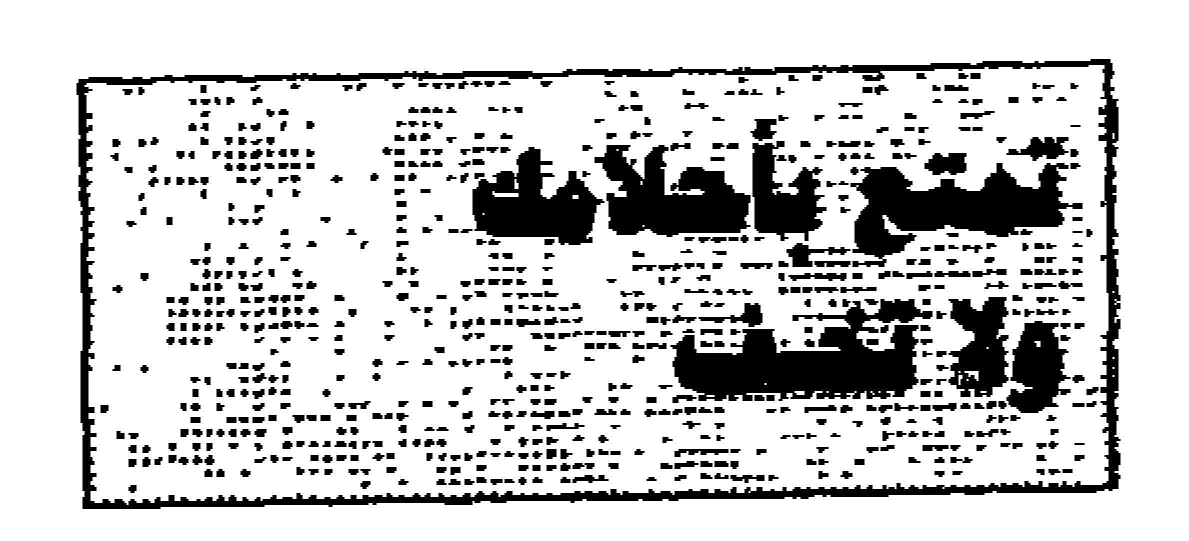
مع ذلك لابد أن أعترف لك بفضل الصحافة الحزبية فى كسر قوالب الجمود التى كانت تحيط بالصحف القومية، وتحريكها خطوات أوسع وأكبر.

إن مثل هذا الشىء حدث - كما لعلك تلاحظ - للمجمعات الاستهلاكية، فقبل الانفتاح كانت هذه المجمعات الاستهلاكية - وقد اطمأنت إلى احتكار زبائنها - لا تبذل أى جهد فى عرض وترتيب وتنسيق سلعها.. كانت تضع هذه السلع فوق بعضها خلف نوافذ حجب التراب عن العيون رؤية ما خلفها.. ولكن بعد الانفتاح وظهور «السوبر ماركت» التى تملكها شركات خاصة، فإن روح التنافس دفعت المجمعات الاستهلاكية إلى تغيير طريقة عرض سلعها، وتنظيف أرففها، وغسل زجاج نوافذها، ومحاولة راحة زبائنها، والعمل على جذبهم.. وهذا أيضا ما حدث فى الصحف القومية بعد ظهور الصحافة الحزبية فى مصر منذ نحو عشر سنوات..

لقد حركت المنافسة الصحف القومية وجعلتها تبدى اهتماما أكبر لخدمة القارئ، وهذا فضل أنسبه إلى الصحف الحزبية..

إننى أرجو ألا أكون أثقلت عليك، وأن أسمع منك قريبا، وإلى رسالة قادمة بإذن الله.





عزيزى شريف:

هل أنت خائف على نفسك من أحلامك؟

هل تخشى أن تسوقك هذه الأحلام وتغوص بك إلى أعماق بحار الخيال بعيدا عن شاطئ الواقع كما يجب أن تعيشه وتراه..

إننى أرجو فى سنك ألا تستمرئ حياة الواقع، وألا تخشى أحلامك وخيالاتك، أو تتصور أنها نوع من الجنون، أو أنك إنسان غير عادى لأنك تعيش هذه الأحلام وتتمكن منك..

إن أحلام الشباب جزء من جمال سنهم وفكرهم ومشاعرهم.. والشباب الذى لا يحلم مثل الأرض التى لا تنبت..

ولكن الكثير من الشباب، ولا أريد أن أقول كل الشباب، يخافون على أحلامهم من أن يراها الآخرون فيتهموهم بالجنون..

إنك يا عزيزى لست مجنونا ولكنك تعيش عمرك..

وفى مسيرة حياتى عشت مثل أحلامك وأغلقتها داخلى واعتبرتها سرا من أغلى أسرارى التى لم أكشفها لأحد أبدا.. ولعلها المرة الأولى التى أتحدث فيها عن تلك الأحلام

بل لعلى أعترف لك بأننى أصبحت أتوق إلى أيام هذه الأحلام، وإلى أجنحتها التى كانت تحملنى وتحلق بى بعيدا بعيدا فى عالم أتمثل فيه حلمى وأسعد

به وأغلق عيني على صوره الجميلة.

وعندما أستعيد هذه الأحلام أعجب لعدد الشخصيات التي عاشت داخلي وكنت أتصور أنني هي.

كانت أول شخصية حلمت بها هي شخصية الممثل جلين فورد.

وقد كان جلين فورد في صباي وشبابي من أبرز نجوم السينما الأمريكية، لكنه لم يكن في حلاوة روبرت تايلور أو جاذبية كلارك جيبيل.

ولعلني اخترته وتمثلته لهذا السبب.

لقد اكتشفت أنني أبحث عن إنسان هادئ وسيم عاقل في غزواته النسائية.

ولثلاث سنوات أو أقل ظللت أعشق شخصية جلين فورد، لدرجة أنني تصورت أنه أنا، وأنني هو، وأن الأفلام التي يمثلها من بطولتي أنا.

وكنت أحرص على حضور العرض الأول لكل فيلم جديد تعرضه سينما مترو، وكانت هي السينما المتخصصة في عرض أفلامه. وكان يخيل لي وأنا أخطو من باب السينما.. أن كل المتفرجين يشيرون إليّ باعتباري نجم الفيلم الذي سيشهدونه. وربما بعد انتهاء الفيلم كنت أقف بضع لحظات لأحيي هتاف الجمهور وتصفيقهم وإعجابهم بدوري وأدائي في الفيلم الذي انتهى عرضه توا.

وكنت أكثر من ذلك أتخيل أن لي رحلات عديدة بين مصر وأمريكا، أسافر فيها لتمثيل أدواري في الأفلام التي كنت أقرأ أن جلين فورد تعاقد عليها، ثم أعود بعد ذلك إلى بلدي لأواصل حياتي العادية.

وعندما لمع اسم دروبني، وهو لاعب تنس تشيكوسلوفاكي هرب من بلاده بسبب الشيوعية ولجأ إلى مصر، وأصبح يلعب بطولة نادي الجزيرة السنوية للتنس باسم مصر، وكنت قد عشقت لعبة التنس، عاش دروبني في خيالي عدة سنوات أخرى.

ثم تخليت عن دروبني عندما عشقت مدرسة فن التمثيل الجديد الذي جاء به مارلون براندو الذي لمع اسمه بصورة خارقة.

وكان مارلون براندو هو الخطوة الجديدة فى طريق السينما التى لا تعتمد على البطل الجميل الذى يفتن قلوب النساء بوسامته وشكله وشعره الناعم..

لم يكن مارلون براندو ينتمى إلى طابور تايرون باور وكارى جرانت وجيمس ستيوارت وكلارك جيبيل وغيرهم من نجوم السحر والجمال.. وإنما كان ينتمى إلى مدرسة الأداء التى تغطى على الشكل، وهى المدرسة التى لمع فيها بعد ذلك أنتونى كوين وشارلتون هستون وغيرهما..

وعندما مثل مارلون براندو دور نابليون فى فيلم ديزريه أذكر أننى شاهدته أكثر من عشر مرات..

وظل براندو يعيش داخلى حتى أصبحت أخاف على نفسى منه، فقد كان يخيل لى أن شخصيته لا تفارقنى.. وأننى سأظل أسير هذه الشخصية بكل الأحلام الكبيرة الواسعة التى أصبحت أعيش فيها منذ اعتقدت أننى مارلون براندو..

ولكن دون أن أدرى وجدت نفسى أفارق مارلون براندو، وأعجب بشخصية محمد التابعى وأحلم بضعة شهور أننى محمد التابعى.

كنت قد عرفت طريقى إلى الصحافة عن طريق الأحلام أيضا.. فقد قررت بينى وبين نفسى أن أكون صحفيا، وقررت بينى وبين نفسى أن أصدر مجلة أرأس تحريرها..

هكذا من أول لحظة أصبحت رئيس تحرير..

وأصدرت المجلة.. ووزع العدد الأول منها ١١٢ ألف نسخة. وتلقيت آلاف البرقيات.. وكتبت فى العدد الثانى أشكر كل أصحاب هذه البرقيات التى أضافت تهانيهم إلى مسئولياتى كرئيس تحرير أعباء جديدة.. قلت لهم فى الكلمة التى كتبتها إننى أرثى لحالى من تحملها..

ولم أكتف بإصدار مجلة واحدة، بل أصدرت مجلة أخرى، ثم أصدرت جريدة يومية، وأصبحت فى أقل من سنة مالكا لدار صحفية كبيرة تصدر مجلتين أسبوعيتين، إحداهما تصدر يوم الخميس والثانية تصدر يوم الأحد، إلى جانب جريدة تصدر يوميا.. وأرقام التوزيع تزداد..

وأنا مشغول بعملى الصحفى المرهق.. ملتزم بإصدار كل مجلة فى موعدها الذى التزمت به أمام آلاف القراء..

آلاف القراء..

كلهم كانوا يعيشون فى خيالى.

ومجلاتى التى رأست تحريرها وأطبع منها آلاف النسخ كنت أكتبها على ورق الكراسة من نسخة وحيدة لا يراها أحد..

فعلا لم يكن يراها أحد.

ولم يكن يعرف بهوايتى الغريبة غير أخى الأكبر الذى وجد أن هذه الهواية التى ترغمنى على البقاء فى المنزل أفضل كثيرا من التسكع فى الشوارع..

وحتى أكتب الصحف والمجلات التى أصدرها كان علىّ أن أقرأ.. فقد اكتشفت أن الكاتب لا يستطيع أن يكتب إلا إذا قرأ..

وفى البداية يتأثر الكاتب بالرأى الذى يقرؤه، ثم مع بلوغه مرحلة النضج يصبح ما يقرؤه هو الرحم التى تنمو فيها أفكاره الخاصة..

إن القراءة تصبح للكاتب مثل عود الكبريت والشطاطة.. فمن احتكاك الاثنين تتولد النار.. وكل كاتب له ناره الخاصة.. أو هكذا يجب أن يكون..

هل أطلت عليك عزيزى شريف فى الحديث عن أحلامى؟

إننى لم أحدثك عن غزواتى النسائية التى عشتها، ولا عن المعجبات.. فلم تستهونى هذه الغزوات طويلا؛ لأننى كنت حتى فى أحلامى مشغولا بأحلامى الأخرى كرئيس تحرير وصاحب مؤسسة صحفية ومجلات ودار نشر وصحفيين؛ كثيرين يعملون تحت يدى..

لقد كان عالما جميلا عشته بكل مشاعرى..

واستمر هذا العالم معى فترة طويلة وأنا لا أصدق أننى سأستطيع التخلص منه..

ولا أذكر على وجه التحديد متى استطعت أن أتخلص منه؟

ربما لأننى أصبحت أعيشه فى دنيا الواقع؛ فقد انتقلت فعلا إلى العمل الصحفى، ودخلت دوامة الحياة التى يدور فيها الإنسان كمسئول وزوج ورب أسرة..

لقد انتهت الأحلام..

لم يعد فى قدرتى أن أحلم.. حتى إن حاولت لم أستطع.. لأننى أعرف أنه حلم وأننى أكون مجنونا إذا فكرت أن أحلم..

الشباب وحده هو المسموح له بأن يحلم، وأن يمتطى أجنحة الخيال، ويذهب إلى أى مكان، ويختار أى شخصية ويعيشها..

إن البعض يتمثلون أنفسهم مليونيرات وهم يعيشون فى قاع الفقر.. لكنهم فى داخلهم بينهم وبين أنفسهم وداخل أحلامهم يتصرفون كمليونيرات.

لماذا لا..؟

إنه الشباب..

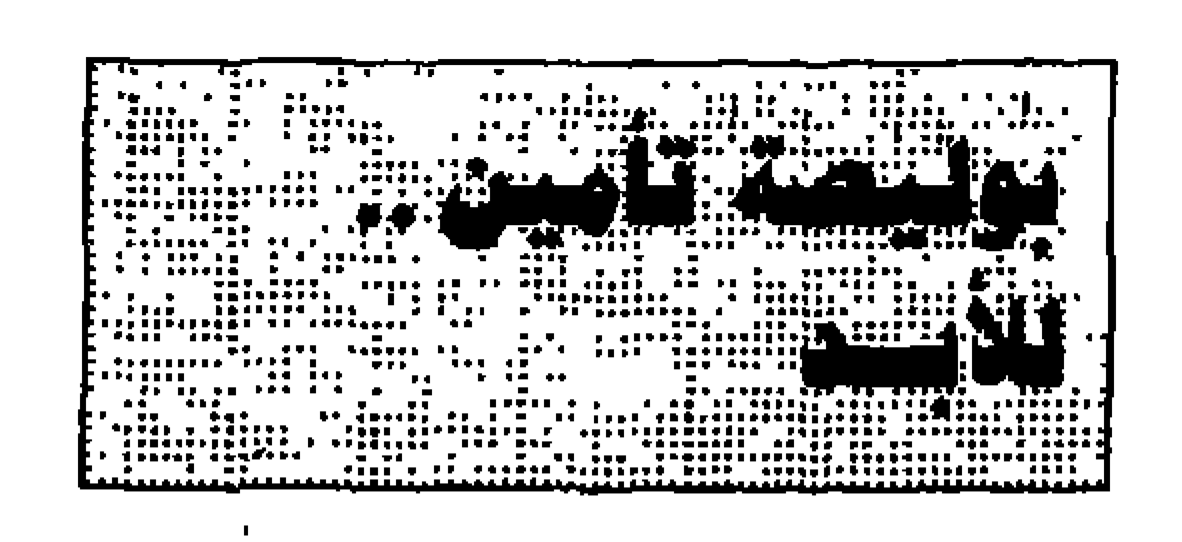
أجمل سنوات العمر..

فإذا كنت تحلم يا ولدى فلا تخش على نفسك من أحلامك.. لا تتصور أنك إنسان غير عادى.. بل تمتع بأحلامك.. وتأكد أنك دون أن تدرى سوف تتخلى عنها.. ويوما ستجد نفسك بلا أحلام، وستتمنى هذه الأيام الجميلة التى كنت تعيشها مع أحلامك.. ومع شخصياتك العديدة

عزيزى شريف:

عش أحلامك يا ولدى ولا تخف..





عزيزى شريف:

ها نحن أولاء نعيش هذه الأيام فى أعظم وأكرم وأفضل شهور السنة.. فى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

إننى أرجو ألا تغرك سن الشباب وقوته فيفتنك عن دينك وعن صلاتك وصومك.. ولست أريد أن أحتل مقعد الواعظ وأحدثك حديث خطباء المساجد فما أنا منهم، ولست أحمل مؤهلات التعمق التى يحملونها فى كتب الدين وشئونه.. ولكننى بالإدراك الحقيقى أيقنت أنه لما كان من المستحيل أن يكون هناك أى مجتمع أو نظام أو كيان بغير قانون يضبطه ويحدده، فقد أدركت أن هذا العالم الذى نعيش فيه يحكمه قانون لا يمكن أن يكون من صنع إنسان، لأن الذى وضع القانون يملك أن يغيره فى أى وقت.. فهل رأيت يوما إنسانا أو مخلوقا استطاع أن يغير شروق الشمس أو مواعيد ظهور واختفاء القمر، أو يصنع ريحا وعواصف؟ ثم إنك لابد سمعت عن العقل الإلكترونى الأمريكى الذى يجرى ٢٥٠ مليون عملية فى الدقيقة الواحدة، ولك أن تتصور ضخامة هذه العمليات.. ومع ذلك ورغم كل التحرزات والاحتياطات وجيش العلماء والباحثين الذين كانوا يخططون لسفينة الفضاء تشالينجر.. فقد تحطمت بعد ثوان من إطلاقها نتيجة خطأ بسيط لم يكتشفه عالم واحد من جيش العلماء الذين أعطوا حياتهم لهذه العملية، فهل يمكن تصور أن هذا العالم يمكن أن يكون فى يد مخلوق معرض للخطأ؟ لابد أن الذى وضع قانون هذه الدنيا أعظم وأكبر من أى مخلوق، فإذا

كان الأمر كذلك فلابد أنه الله..

وإذا كان العقل البشرى قد وصل إلى اختراع العقل الإلكترونى الذى يجرى ٢٥٠ مليون عملية فى الدقيقة، فلماذا نستكثر وجود الله الذى يملك مراقبة كل الملايين والبلايين من مخلوقات وكائنات حية فى كل لحظة، بل كل همسة ؟!.

العقل إذن لابد أن يقود إلى الحقيقة وهى أن الله موجود.. وإذا كنا فى حياتنا الدنيا ندين للحاكم بالولاء والشرعية، ونؤمن بأنه مادام هو الحاكم الشرعى للبلاد فيجب أن نطيعه. فما بالك بالحاكم الذى لا مثيل له ؟ وما بالنا بالحاكم الذى لا يموت ولا ينام ولا شريك له فى حكمه، ويملك كل ما فى السموات والأرض ؟ أية طاعة يجب أن ندين بها له ؟

ولابد أنك فى قراءتك عرفت أن الإنسان أدرك منذ آلاف السنين وجود قوة خارقة تقود هذا الكون وتملكه وتحكم قوانينه.

وقد تصور الإنسان هذه القوة الخارقة فى أشياء مادية كثيرة : فى الماء وفى النار وفى الأوثان.. وفى وقت واحد فإن الإنسانية كانت ممزقة فى محاولات بحثها عن هذه القوة الخارقة المالكة، فأرسل الله أنبياءه ورسله يهدون الناس إلى هذه القوة ليجمعهم وينهى خلافاتهم فى الرب الذى يعبدونه.. فلا نار ولا ماء ولا جبال ولا حيوانات ولا أوثان ولا أصنام.. بل إنه الله.. الله.. الله..

فالبداية إذن كانت التعريف بالله.. ولأن الرسل من البشر فقد خصهم الله بالمعجزات التى تجعل الناس فى زمانهم يصدقونهم..

إن أية رسالة لا تستطيع أن تؤمن بها إلا إذا صدقتها.. ولهذا كان من الضرورى أن يصدق الناس الرسل والأنبياء.. فكان أن جاء كل رسول بمعجزة.. شاهدها أهله وقومه.. إلى أن جاء الإسلام ليكون خاتم الأديان.. وبعث الله محمدًا ليكون خاتم الأنبياء ولكل البشر..

ولكن كيف ؟

كيف يصدق الناس محمدًا وهو كإنسان لابد أن يموت ككل البشر ؟

كيف يحمل الناس معجزاته إلى الذين سيجيئون بعدهم ؟

إن كل ما نسمعه عن معجزات السيد المسيح لم يرها أحد من الذين يعيشون اليوم.. إن كل هذه المعجزات بالسمع.. لكن أحدًا لم يعاصرها من أحياء اليوم.. فكيف تدوم المعجزة؟ أو بمعنى آخر ما هى المعجزة التى يمكن أن تدوم وتستمر ويحسها الإنسان فى كل عصر وكل زمان، ومهما توالت الأيام وجرت السنون؟

المعجزة هى القرآن.

معجزته الكبرى هى القرآن..

إن اللغة لا تموت إلا بانتهاء العالم.. فما دامت هناك حياة فلابد أن تكون هناك لغة يتحدث بها الناس ويتعاملون ويتفاهمون..

وفى العربية فإن الحديث أو الكلام أو اللغة يمكن أن تأخذ ثلاث صور: الشعر والنثر والعامية، ولهذا جاء القرآن مختلفًا عن أية صورة من الصور الثلاث.. إنك تسمع فيه موسيقى الشعر وليس بشعر.. وتجد فيه صورة النثر ولكنه ليس بنثر.. وإذا كانت أية عمارة أو بناء هندسى مثل الأهرامات تستوقف الإنسان طويلاً أمام روعة العقل الذى صممها، فإن التوقف أمام كلمات الآيات سوف يدهشك ويستوقفك وكثيرًا كثيرًا.. أكثر من التوقف أمام أى بناء هندسى.. لقد مضى أكثر من ١٤٠٠ سنة على نزول القرآن ولكن معجزته لم تتوقف ولن تتوقف..

إنك تعلم أن المجتمع الإنسانى فى تطور مستمر.. من عصر إلى عصر.. وهو فى هذا القرن سجل من التقدم والاختراعات ما لم يسجله فى الـ ١٩ قرنًا الماضية.. ومع ذلك فإن الإنسان الذى يتأمل فى القرآن يجد أنه يكتشف فيه الجديد الذى يلاحق عصره ويتكلم لغة تطوره.. ولاشك أن السنوات القادمة بالآلاف أو الملايين سوف تشهد تطورًا أكثر وأكثر.. ولكن كل عصر مهما تطور ومهما بلغت درجة تفوقه، سوف يجد نفسه راكعًا أمام معجزة القرآن..

إننى أريد أن ألفت نظرك إلى أن آية من خمس كلمات يقول فيها الحق: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾. وإذا تأملت العالم تجد أن صراع البشرية فى تاريخها المستمر يدور حول المال والبنين..

وسوف تكتشف شيئًا آخر أن القرآن تضمن أحكامًا للعبادة لا مجال فيها

لاجتهاد المفسرين، ولكنك ترى قضايا أخرى متروكة للاجتهادات التى يصل إليها المفسرون بحسب حدود رؤيتهم المكانية والزمانية.. ومع ذلك فسوف تجد أن القرآن قد تضمن موضوعين محددين من موضوعات الحياة تعرض لهما بالتفصيل، وهما قواعد الإرث والزواج..

أليس غريبًا أن القرآن وضع بالتفصيل قانون الميراث، وحدد نصيب كل فرد فى الميراث مهما كانت درجة قرابته؟

أليس لافتًا للنظر أن القرآن أيضًا حدد على وجه اليقين والتفصيل المحرمات فى الزواج؟

لماذا؟ حتى يحمى الله الأسرة ويجمع أفرادها وتقوم على أساس سليم، ولا تتفتت وتتمزق بوفاة رب الأسرة ومحاولة كل منهم تحديد نصيبه من الميراث على مزاجه..

وإذا أنت فكرت فى الإرث والزواج تجد أنهما يدخلان فى المال والبنين.

وكل الذى قلناه باختصار شديد لا يتناول أكثر من بضع آيات.. ولكن كل آية فى القرآن قضية فى حد ذاتها.. وأول ما يلفت النظر فيها البناء الغريب الذى لا يستطيع بشر أن يغير مكانُ كلمة بكلمة.. ولا حرفًا بدلًا من حرف.. ثم بعد ذلك المعانى العميقة الواسعة.. بحار ومحيطات المعانى التى كلما غاص فيها عصر من العصور وجد الكنوز والدرر..

هذه هى المعجزة المستمرة الباقية.. المعجزة التى تؤكد أن هذا الكلام ليس من صنع بشر، وإلا كان من الممكن مثلًا أن يحاول بشر فى هذا الزمان أو الذى قبله أن يكتب شيئًا مثيلًا له.. شيئًا يكتب له هذا الخلود الأبدى الذى للقرآن، ويكتب له هذا الدوام فى المعانى والمفاهيم والأحكام والمنهج والملاءمة لأى عصر..

إنك ترى القمر بعينيك وتقول هذا قمر.. وترى الشمس وتقول هذه شمس، والذى لا تستطيع أن تراه بعينيك وإنما بمشاعرك وأحاسيسك وأيضًا بعقلك.. إذا فكرت بمشاعرك وعواطفك فسوف تكتشفه، وإذا فكرت بعقلك فسوف تراه.. ومن هنا يبدأ الإيمان.. ومتى آمنت به يجب أن تطيعه.. وسر طاعة الله فى الآخرة.

إنك فى حياتك تبحث عن بوليصة تأمين تؤمن لك مستقبلك.. كل إنسان فينا قلق على مستقبله، ولكن هذا المستقبل محدود السنوات.. كم سنة هذا المستقبل؟ عشر سنوات؟ عشرون؟ خمسون؟ فما بالك إذا كان المستقبل ملايين السنوات؟ ما بالك إذا كنت تريد بوليصة تأمين تضمن لك تأمين مستقبلك بملايين السنين؟ هذه البوليصة موجودة فى منهج الله.

وكل شيء يريده الله منك لا تشم فيه ولا تلمس فيه ولا تحس فيه إلا كل خير... الصلاة مثلاً.. هات ماكينة تقوم بصيانتها خمس مرات كل يوم.. ألا تضمن أنها تعيش طوال عمرها الافتراضى فى أحسن حال؟ والصوم.. أليس تطهيرًا للنفس وتنقية للروح؟ والزكاة.. أليست الوسيلة للعدالة الاجتماعية ونشر المحبة بين الناس؟ والحج.. أليس استعراضًا بطريق غير مباشر لقوة المسلمين العددية وتظاهرهم واجتماعهم معًا فى يوم معين من السنة فى ساعات معينة؟ ألا يعنى كل ذلك أن الإسلام يعنى الخير والقوة والحب والتعاطف والتقارب؟ ولكن البعض يخطئ خطأ كبيرا عندما يتصور أن الإسلام مجرد كلمة تكتب أمام خانة ديانته. الإسلام يقتضى منك أن تفهمه وأن تدرك به الله ومنهجه. وعندما تصل إلى هذه الدرجة سوف تكتشف أنك قادر على أن تواجه الدنيا بإحساس بالغ من القوة والضعف.. القوة أمام البشر والضعف أمام الله.. وسوف تشعر أنك مهما واجهت من مصاعب ومشاق فإنك تملك إيمانك الذى سيصبح أشبه بسفينة نوح التى تعصمك من الغرق..

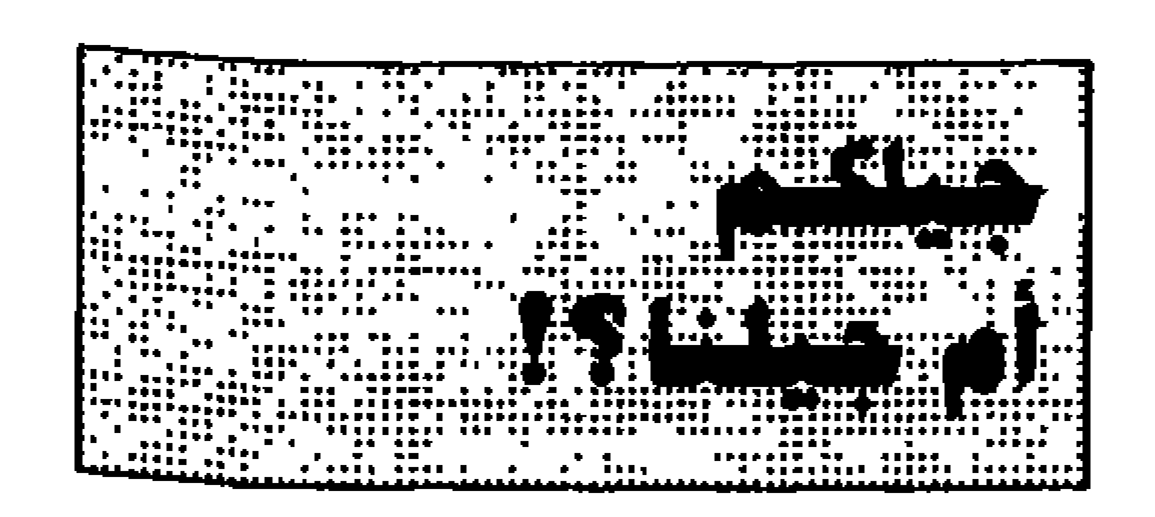
وإذا كنا عرفنا الله من القرآن، وعرفنا منهجه من القرآن، وهذا القرآن نزلت آياته فى شهر رمضان.. أفلا نكون محظوظين إذن، إننا نعيش أيام هذا الشهر؟

مع ذلك لابد أن ألفت نظرك إلى شيء بالغ الأهمية.. وهو أن عبادة الله إذا كانت باتباع منهجه فإن من أوليات وأساسيات هذا المنهج أن تعمل.. وأن تتفوق.. وأن تكسب.. وأن تصارع الدنيا.. وإذا كان كثيرون قد احتاروا فى هذه المعادلة بين العمل للحياة والعمل لما بعد الموت.. فإن حل المعادلة يكمن فى «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا» ولكن أحدًا لن يعيش أبدًا، ولهذا يجب أن تدخر لمستقبك الكثير. إن الطفل الصغير يتعلم أن

يضع قرشًا فى حصالته لكى يجد مجموعة جنيهات عندما يكبر.. ولكن حصالة الدنيا مهما جمعت فيها.. ومهما وضعت فى بنوكٍ وفى صناديق توفير وفى أراض وعمارات وأطيان.. فإنك أبدًا لن تأخذ منها شيئًا معك. إن الحصالة الوحيدة التى يمكنك أن تصحب كل مدخراتها معك هى التى تضع فيها كل يوم ذرة خير.. إنها بوليصة تأمين حقيقية لكنها ليست محددة بمدة.. إنها بوليصة تأمينك للأبد..

لك كل حبى وأمنياتى فى هذا الشهر الكريم، وإلى لقاء قريب بإذن الله.





عزيزى شريف:

أينا الأسعد؟ جيلنا الذى تجاوز سن الخمسين أم جيلك الذى لم يبلغ بعد سن الخامسة والعشرين؟

كثيرا ما سألنى أصدقاء لك هذا السؤال، بل كثيرا ما سألت نفسى أنا هذا السؤال.. بل لعلى أضيف أنه - على ما يبدو - أحد الأسئلة الأزلية التى يسألها كل جيل سواء بالنسبة لنفسه أو لغيره..

وعندما أنظر إلى إمكانات الرفاهية والتسلية التى تحيط بجيلك، وأقارنها بما عشناه نحن فى طفولتنا من جفاف وبدائية، أشعر أن جيلك لابد أن يكون أسعد منا كثيرا..

فأنا شخصيا لا أذكر أننى زرت طبيبا للأطفال.. لم يكن فى أيام طفولتى قد وجد فى مصر هؤلاء الأطباء المتخصصون فى علاج الأطفال.. بل إنهم عندما ظهروا فى مصر فى أواخر الأربعينات، وبدأت بعض أسمائهم تعرف فى الخمسينات وتنتشر فى الستينات، كان الاعتقاد الشائع عند البعض أن طبيب الطفل هو طبيب لم يكمل دراسته!! ولعلك لا تعرف أن طبيب الأطفال على عكس هذا المفهوم الخاطئ، هو طبيب درس عددا كبيرا من التخصصات التى لم يدرسها طبيب آخر، حتى يمكنه التعامل مع مريض معرض لعديد من الأمراض فى الأنف والأذن والحنجرة والعين والقلب والمعدة والأطراف والجلد والأورام.. إلخ، ثم هو غير ذلك طبيب يتعامل مع نوع من المرضى لا يشير للطبيب إلى

مكان الألم.. فالطفل لا يعرف غير أسلوب الصراخ، ولكن دون أن يفصح عن سبب صراخه: هل من اللوز أو من المعدة أو من حساسية فى جلده ؟.. وعلى طبيب الأطفال وحده أن يكتشف ويعرف: أين الألم؟

وهكذا.. فأنت يا عزيزى شريف من جيل عالجه طبيب الأطفال، وكان زبونا دائما لهذا الطبيب، أما جيلنا فإنه تعامل فى أسوأ الحالات مع «حلاق الصحة» الذى عرف معلوماته الطبية من إجراء عمليات الطهور للأطفال، وفى أحسن الحالات فقد كان هناك فى كثير من المدن ما يسمى «السبع بنات» وهو إشارة إلى سبع راهبات تخصصن فى تعلم كيفية علاج عيون الأطفال بوجه خاص. لقد انتهت هذه الصورة على كل حال، وأصبح فى أصغر قرية مصرية اليوم أكثر من طبيب متخصص لعلاج أطفال جيلكم ورعايته..

وعندما كنا نلعب ونحن أطفال فقد كان أفضل ما نستطيع أن نلعب به «نوى المشمش» وعلب الورنيش والزجاجات الصغيرة الفارغة والكرة الكاوتش أو الشراب.. لم نعرف كما عرفت يا عزيزى شريف اللعب المختلفة من السيارات والعرائس والبلى الملون والصواريخ والطائرات والدبابات.. وأخيرا «العروسة باربى» التى لها أزياء مختلفة..

واللعب - كما لابد أن تعرف - هى وسيلة لتنمية الخيال بجانب المتعة التى يحس بها الطفل.. وبصورة عامة أستطيع أن أقول لك إن عددا كبيرا من جيلى لم يعرف شيئا اسمه «لعبة الطفل» ، وكنا كأطفال نقوم بالجهد الذاتى بتدبير حالنا ولعبنا من فضلات البيوت!

ولعلك لا تعرف أن جيلى لم يعرف الكهرباء فى سنوات طفولته فلم تكن الكهرباء قد وصلت إلى كثير من بيوتنا، خصوصا من نشأ منا فى القرى أو المدن الصغيرة.. كنا نضىء بيوتنا بلمبة الجاز، ولكن فى أواخر الأربعينات دخل هذا الساحر الغريب بيوتنا، الذى بلمسة على مفتاح مثبت فى الحائط كان يملأ الغرفة بالنور..

ولم أعرف فى طفولتى من وسائل الترفيه الحديثة سوى الراديو، وكان عبارة

عن صندوق خشبى يأخذ شكل الوجه.. ولعل هذا الشكل كان مقصودا على اعتبار أن الراديو هو إنسان متحدث من الخشب!

لقد كانت لنا تقاليد خاصة فى التعامل مع هذا الصندوق، فقد كنا نغطيه بغطاء خاص تقوم سيدة البيت بتفصيله للراديو.. وكانت هناك مواعيد ثابتة لاستعمال الراديو. صباحا مع بداية افتتاحه بتمرينات الصباح ثم القرآن، ومساء عند موعد صلاة العشاء ثم الأخبار ثم القرآن.. ولكن جيلك يا شريف هو جيل الراديو الترانزستور الذى تصحبه معك إلى الحمام، وجيل التليفزيون، وجيل الفيديو.. جيلك هو جيل الكهرباء فى كل غرفة، والثلاجة بدل من القلة، والبوتاجاز عوضا عن وابور الجاز، وجهاز التكييف بدلا من المروحة الريش التى كنا «نهوى» بها على وجوهنا..

جيلك هو جيل السهر إلى ما بعد منتصف الليل، وليس النوم قبل الثامنة كما كنا ننام فى طفولتنا..

جيلك هو جيل ألعاب الأتارى والسيارة والبنطلون الجينز والتليفون اللاسلكى والسوبر ماركت الذى تشترى منه فى دقائق كل حاجتك.. أما جيلى فقد نشأ فى بيوت تؤمن بالاكتفاء الذاتى فى تدبير كل احتياجاتها من خبز ومربى ومخللات وجبنة وحلويات.. كان يعتبر «عيبا» أن تشترى شيئا من كل ذلك من خارج البيت.. وكانت ست البيت فى عمل متصل طوال النهار من خبيز إلى طبيخ إلى تنظيف إلى ترضيع إلى تربية الأطفال وتربية الطيور التى كانت موجودة فى كل بيت.. فراخ وأوز وبط وأرانب.. حتى كل هذه الطيور كانت البيوت القديمة تعتمد على نفسها فى تربيتها.. فالأساس هو أن يوفر البيت المصرى حاجته ذاتيا، والاستثناء أن يشتريها من الخارج..

ولقد تغيرت هذه العادة كثيرا فى جيلك يا شريف.. فالأصل أصبح أن يشترى البيت كل حاجته من الخارج: خبزه، وطيوره وحلوياته ومرباته ومخللاته وبيضه وجبنته.. بل لعله أصبح «عيبا» أن تشغل أية زوجة نفسها بعمل شيء من ذلك، حتى يمكن القول بأن هذه الصفة أصبحت تنطبق علينا كدولة، فبعد أن كنا نحقق حاجتنا ذاتيا أصبحنا نعتمد فى توفيرها على الاستيراد.

فى جيلنا كنا نعانى للحصول على أى شىء.. كنا نسهر طوال الليل يوم الخبيز، وكنا ننتظر الدجاجة التى تبيض لكى نعرف طعم البيض، وكنا نصبر الشهور على الفرخة كى تسمن وتكبر حتى نذوق لحمها، وكنا نفرح يوم «تسييح الزبدة» حتى نلتهم سندوتشات العسل بالسمنة الطازجة.. فى جيلك أصبح كل شىء جاهزا معلبا مغلقا معقما.. فى لحظات تستطيع الحصول على كل ما تريد.. لم يعد هناك جهد ولا عناء لصنعه بنفسك كما عاش جيلى..

وغير هذا فأنا من جيل كان يحترم الرموز ويحافظ عليها.. ولعلك شاهدت فى بعض الأفلام القديمة منظر الطربوش يغطى كل رأس.. وهذا الطربوش كنا جميعا نرتديه ونحن تلاميذ؛ فقد كان رمزا لأننا أصبحنا كبارا ودخلنا المدرسة الابتدائية وعلى وشك أن نتخرج من الابتدائية بلقب أفندى، وهو اللقب الذى كان يطلق على كل من نال شهادة الابتدائية..

وقد ظل الطربوش إلى ما بعد سنوات الثورة بقليل، الصديق الذى لا يستطيع أن يخرج الشاب أو الرجل إلى الشارع دون أن يصحبه معه.. وعندما قامت الثورة فى يوليو ٥٢ وكان قادتها من أفراد الشعب العاديين، فقد كان شيئا جديدا أن يتمردوا على الطربوش وعلى البدلة، ونشاهد حكامنا بالقميص والبنطلون.. وهو ما أصبح شيئا عاديا فى جيلك..

دعنى بهذه المناسبة أحكى لك شيئا عن الطربوش وشخصية كان لى حظ العمل معها فى بداية طريقى الصحفى وعملت إلى جانبه سنين طويلة.. فى بداية عملى الصحفى كان الأستاذ محمد حسنين هيكل عام ٥٣ رئيسا لتحرير آخر ساعة.. كان نجما شهيرا فى ذلك الوقت فى سماء ولا أقول بلاط الصحافة.. ورغم التغيرات التى دخلت حياتنا فى ذلك الوقت فإن الأستاذ هيكل لم يستطع أن يتحرر من لازمتين: الطربوش والبدلة.. وعندما وجد أن الطربوش قد أصبح فى المجتمع المصرى صديقا عجوزا مهجورا فإنه ظل حريصا على امساكه بيده دون أن يضعه على رأسه.. فى غدوه ورواحه - كما يقولون - كنا نشاهده دائما بالبدلة والطربوش ممسكا به فى يده.. وكان فور دخوله إلى مكتبه يضع الطربوش على مكتبه ويخرج للقاء الأستاذ مصطفى أمين فى مكتبه أو الأستاذ على أمين

صاحبى دار أخبار اليوم.. وطوال بقائه خارج مكتبه كنا نشعر بوجوده لأن طربوشه موجود فوق المكتب.. ومضت أسابيع بل مضت شهور قبل أن نكتشف أن الأستاذ هيكل كان يترك طربوشه فوق مكتبه ويغادر أخبار اليوم بدون الطربوش لموعد فى الخارج، ثم يعود وهو مطمئن إلى أننا جالسون فى المكتب الذى إلى جوار مكتبه نتحدث همسا خوفا من طربوش الأستاذ!

ولقد مضت سنون تحرر فيها الأستاذ هيكل من الطربوش، لكنه لم يستطع أن يتحرر من البدلة حتى اليوم، فمن النادر من شاهده بدون البدلة فى الشتاء أو الصيف..

هل بعدت كثيرا عن موضوعى؟

ربما كان عذرى أننى ولدت فى عصر الحنطور الذى كان يتهادى، أما أنت فقد ولدت فى عصر السيارة السريعة..

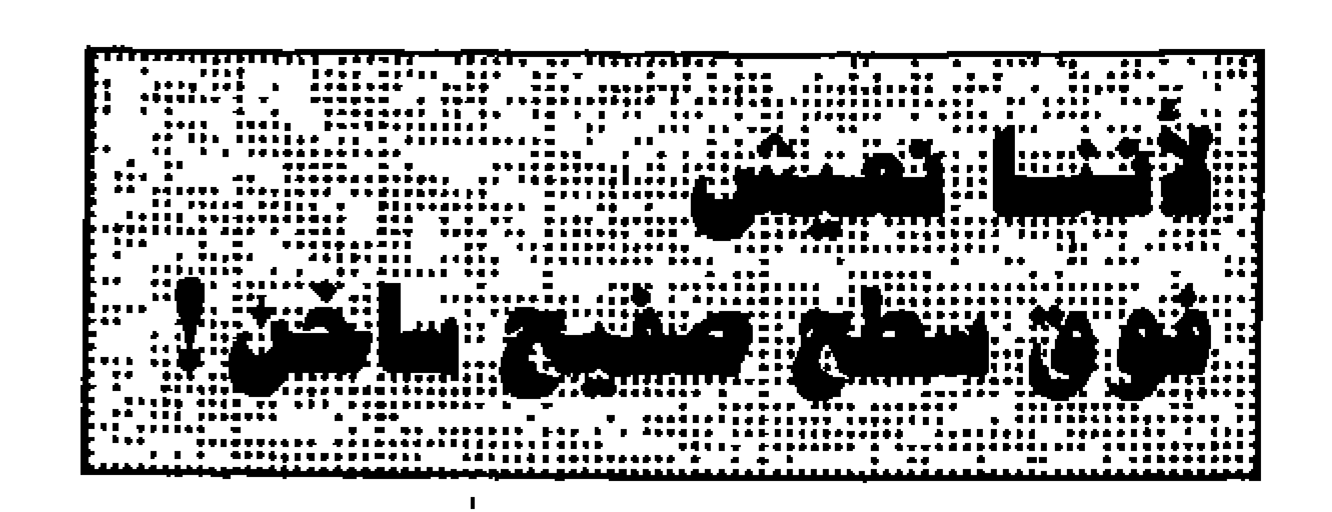
وما زال فى داخلى - غصبا عنى - شىء من هذا الحنطور.. بجياده المطهمة التى تطرقع أقدامها فوق الأرض فنظن أنها تسابق الرياح بينما هى تسير الهوينى..

لقد شغلت مساحة خطابى إليك دون أن أجيب عن سؤال بدأته عن أيهما الأسعد؟ جيلك أم جيلى؟

وكما قلت لك.. أنت ولدت فى زمن أحاطت به كل وسائل الترفيه والطفولة الناعمة التى تجد طبيبا ومربية ومدرسة حضانة وألعابا مختلفة، وتنمو على الراديو والتليفزيون والفيديو والسهر، وتركب السيارة بلا خوف، وتدوس على زرار الأسانسير بلا وجل، وتحصل على كل حاجاتك من أول سوبر ماركت دون أن تعانى جهد صنع هذه الحاجيات داخل البيت المتواضع المحدود..

أنت بلا شك أسعد منى فى كل هذا.. جيلك أسعد من جيلنا فيما ملكتموه من وسائل ترفيه وتسلية..

ولكننا فى جانب آخر كنا أسعد منكم، فهل تمهلنى إلى رسالة قادمة نواصل فيها ما لم نكمله؟! لك كل أمنياتى، وإلى لقاء فى الرسالة القادمة بإذن الله..



لأننا نعيش فوق سطح صفيح ساخن!

عزيزى شريف:

وحشتنى الكتابة إليك. شهران كاملان لم أستطع الكتابة إليك فيهما لأسباب خاصة ليس هذا مكانها.. وبصرف النظر فمن حقك أن أعتذر إليك، ولعلك تذكر ما كان بيننا من حديث فى آخر رسالة كتبتها إليك.. كنت أتحدث عن قضية الأجيال القديمة والجديدة.. أجيال ما بعد الخمسين، وأجيال ما قبل الخامسة والعشرين.. وأيها الأسعد؟ ولعلك تذكر أننى أشرت إليك فى رسالتى إلى جيلكم الحديث وقلت لك إنه جيل الرفاهية والطفولة الناعمة، التى تجد طبيبًا ومدرسة حضانة وألعابا إلكترونية، وتستمع إلى الراديو فى الحمام وتحت لحاف السرير إذا أردت، وتسهر مع التليفزيون والفيديو وتركب السيارة بلا خوف وتدوس على زرار الأسانسير بلا وجل، وتحصل على كل حاجاتها من أول سوبر ماركت دون أن تعانى كما كان جيلنا يعانى فى صنع هذه الحاجات داخل بيوتنا..

إنكم جيل المعلبات ونحن جيل صنع كل شىء بأيدينا..

أنتم جيل التكنولوجيا، ونحن جيل الراديو الخشبى الذى كان يبهرنا سماعه، ونعتقد أن فى داخله إنسانًا يتحدث إلينا أو أن به مسًّا من الجان..

ومن طبيعة الرفاهية أن تجعل من يتذوقها يكون الأسعد، وقد عاش جيلكم - ولا يزال يعيش - ألوانًا عديدة مختلفة من الرفاهية، فهل هذا يعنى أنكم الأسعد؟

نظريا لابد من ذلك، ولكن عمليا فإننى أرى أشواك العذاب فى نفس هذه

الوسائل للراحة والسعادة، وهذا ما يجعلنا جميعًا، سواء جيلكم وجيلنا.. «نعيش» أسباب الرفاهية ولكن لا «نستمتع» بها..

وأنا أذكر قديمًا عندما كنت أسافر إلى الخارج وأنبهر بما أراه.. وعندما كنت أرى خطوات العلم الأولى فى الفضاء يوم ذهب رائد الفضاء السوفيتى يورى جاجارين فى أول رحلة له حول الأرض أمضى فيها ٨٨ دقيقة انبهرنا فيها بكل دقيقة عاشها وكل كلمة قالها..

يومها عاش العالم كله مبهورًا يتابع أخبار الرحلة..

ولكن.. هذه الأيام ما أكثر رحلات الفضاء التى انطلقت وأمضى أصحابها عدة أسابيع فى الفضاء وقاموا بتجارب مختلفة فى هذا الفضاء وعادوا من رحلتهم دون أن نحس بها أو على الأقل دون أن ننبهر بما فعلوه..

خلاص.. ضاع منا إحساس الانبهار ففقدنا الاستمتاع بغرابة الشىء..

لقد وصلنا إلى القمر فماذا بعد ذلك؟

كل شىء أصبح عاديا..

ثم إن التليفزيون أصبح ينقل إلينا، ونحن فى داخل حجراتنا كل المشاهد المختلفة لحياة الشعوب.. لقد حول التليفزيون ووسائل المواصلات السريعة العالم إلى قرية كبيرة ليس فيها ما يبهر أو يثير العجب..

وأنا أحس بحنين جارف إلى سنوات الانبهار التى عشتها ولم يلحق بها جيلك..

فى سنوات طفولتى وشبابى كان التقدم العلمى يسير مرتاحًا، ولكن فى جيلك فإن هذا التقدم يلهث ملتاعًا..

ولهذا استمتع شبابنا بما ملك من وسائل مختلفة..

الراديو الخشبى استمتعنا به سنوات طويلة..

والمسجل الذى يدور بالسلك ثم بالشريط الكبير كان أملًا كبيرًا فى حياتنا.. بل لعلى أقول: إن هذا المسجل كان وراء سفر الكثيرين من المصريين إلى

الخارج قبل ٢٥ سنة.. كان أمل كل مصرى أن يعود حاملاً هذا المسجل الذى بالكاد يستطيع حمله لثقله..

كنا نستمتع بالثلاجة التى تعمل بالثلج..

ولم تكن المخترعات كثيرة كما هى اليوم، ولا سريعة التطور كل يوم كما هو حادث الآن..

كان بين كل اختراع وآخر عدة سنوات يستمتع فيها المشترى بما اشترى ويسعد به..

ولكن انظر إلى ما يحدث اليوم، ما تكاد تشترى راديو أو تليفزيونًا أو جهاز فيديو أو ثلاجة أو سيارة أو بوتاجازاً أو غسالة.. ما تكاد تمتلك شيئًا من هذا ويخيل إليك أنك ملكت أحسن شىء حتى تقرأ عن ظهور موديل جديد أكثر تطورًا يجعلك تريد التخلص مما اشتريت والحصول على الأحدث..

السلعة التى اشتريتها لتسعدك أصبحت سببًا من أسباب تعاستك.. ونتيجة لذلك فقد الكثيرون شعور الإحساس بالاستقرار..

إن الاستقرار النفسى يجعلك تحس أنك تسبح فى داخلك على مياه بحيرة هادئة ناعسة حالمة.. أما عدم الاستقرار فهو يجعلك تشعر داخلك بالأمواج عالية صاخبة.. وأنتم لستم سعداء.. لأن المتغيرات كثيرة.. والتطور المستمر لا يجعل جيلكم ونحن أيضًا معكم بكل أسف - يحس بالاستقرار النفسى.. فأصبحنا جميعًا نجرى وراء الجزرة التى يعلقها راكب الحمار فى طرف عصا يضعها بعيدًا قليلاً عن رأس الحمار..

عزيزى شريف:

كما ترى فإن الجيل القديم كان جيل الوسائل البدائية فى كل شىء تقريبًا.. وجيلك هو جيل الوسائل المتقدمة.. جيل الريموت كونترول الذى لا يريد مخترعه أن يجعلك تكلف خاطرك وتغادر مقعدك لإطفاء أو فتح جهاز التليفزيون أو جهاز التكييف أو الفيديو، وإنما يريد أن يوفر عليك هذه الخطوات القليلة ويجعلك تقوم بذلك وأنت جالس فى كرسيك.. جيلك هو جيل جهاز التليفون

الذى له ذاكرة، يكفى أن تضغط على رقم واحد فيه لكى يدير هو القرص نيابة عنك ويجىء لك بالرقم المطلوب دون أن تتكلف عناء إدارة القرص.

إنه جيل الأسانسير الذى بلمسة أصبح يصل بك إلى فوق.. دون أن تبذل أى جهد.. ومع ذلك فإن الأجيال السابقة التى لم تعش هذا كله أو تملكه يبدو أنها كانت الأسعد..

لأن السعادة ليست فى الامتلاك فقط.. ولا أن تعيش عصرًا فقط.. إنما السعادة على ما يبدو أن تستمتع بهذا الشىء الذى امتلكته، وأن تتمتع بالعصر الذى عشته.. وبدون الاستمتاع فإنك تصبح مالكًا بلا سعادة.. أشبه بمن يملك مليون جنيه ولا يعرف كيفية الاستمتاع بها، بينما الذى لديه مائة جنيه يعرف الاستمتاع بكل مليم منها.

لعل هذا هو الفرق بين جيل طفولتى وجيلك..

كان جيل طفولتى يعرف كيف يستمتع بحياته البسيطة.. بالعربة الحنطور، وماء القلة، «ونوى المشمش» الذى يلعب به.. كان يملك الوقت الذى يجعله يتذوق طعم كل هذه الأشياء البسيطة.. كانت الحياة بالنسبة له أشبه «بالمصاصة».. إنها حلوى بسيطة جدا، لكنها تدوم طويلاً فى يد من يتذوقها.. لأنه يستمتع بكل رشفة.. أما اليوم فلا وقت للاستمتاع.. كل شىء يجرى.. يقفز.. يلهث.. حتى التطور نفسه.. فالحياة أصبحت فوق سطح صفيح ساخن.

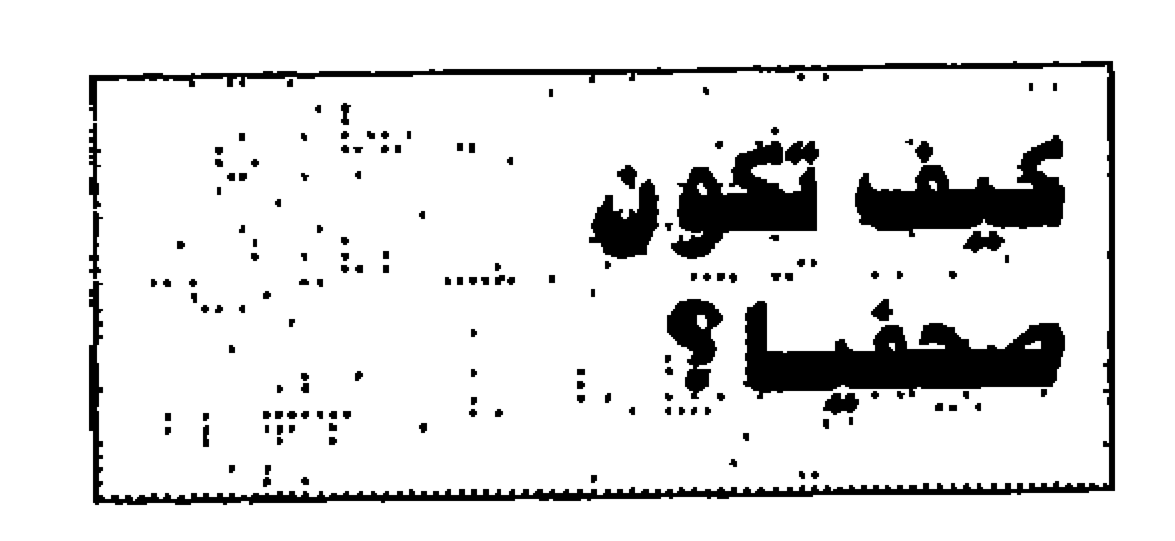
ولكن ليس معنى هذا أن كل الابتكارات والاختراعات ومظاهر التطور جاءت ومعها أسباب الراحة والسعادة فى جانب، وأسباب العذاب وعدم الاستقرار فى جانب آخر.. ففى جيلك تقدم الطب، وتطورت وسائل العلاج.. وبعد أن كان جيلنا يكتفى بزراعة القلقاس والبامية والبطيخ، فإن جيلكم يزرع القلب والكبد والكلية.. لقد طال عمر الإنسان بفضل هذا التطور.. وظهرت أدوية كثيرة تعالج الآلام وتقضى عليها.. وبعد أن كنا نشبه العذاب «بخلع الضرس» أصبح «خلع الضرس» فى جيلك يتم بلا عذاب.. بل إن التطور وصل إلى حد عدم الاستغناء عن أى ضرس وفصل جذوره التى فيها المرض والاستفادة بالضرس ككتلة فى الفم..

ولو أردت أن أعدد وسائل التطور ما استطعت..

يكفى أن جيلكم أصبح يمتلك كل إمكانات المعرفة المهولة التى أصبح سهلاً الحصول عليها.. فدوائر المعارف أصبحت تناقش كل موضوع.. ويكفى نظرة إلى فهرس هذه الدوائر لكى تستخرج ما تريد من معلومات فى ثوان.. لقد تقدمت وسائل المعرفة.. لقد تعددت وسائلها.. ولكن مشكلتك هى التليفزيون الذى يجعلك لاتجد الوقت لكى تستمتع باستخدام واستغلال هذه الوسائل التى أصبحت متاحة أمامك.. آه لو عاد العمر.. آه لو أن هذه الإمكانات المتاحة من البحث والمعرفة كانت متوافرة فى زماننا.. ولكن الزمان لا يعرف العودة بأصحابه.. ربما عاد الزمان من جديد ولكن بأجيال جديدة.. وناس غير الناس..

لك كل أمنياتى.. وإلى لقاء فى رسالة قادمة بإذن الله.





عزيزى شريف:

لفت نظرى فى رسالتك الأخيرة سؤالك الملح لى حول ضرورة معرفة أسماء الكتب التى أنصحك بقراءتها حتى يمكنك أن تحقق حلمك فى أن تكون كاتبًا لامعًا تنشر الصحف والمجلات اسمه بارزًا مع إنتاجه. ولا أبالغ إذا قلت لك إن كل كاتب يتلقى كل أسبوع عددًا لا بأس به من رسائل أصحاب الأحلام الواسعة، الذين يرون فى العمل الصحفى أملهم الوحيد الذى يتعلقون به، مؤكدين أنهم خلقوا ليكونوا أدباء وكتّابًا، ولا تنقصهم إلا اليد التى تجلو التراب عن كنوزهم وجواهرهم، وتسمح للقراء بمعرفة عبقريتهم. وبعض أصحاب هذه الرسائل لا يكتفون فقط بطلب المساعدة، بل إنهم يذهبون إلى أبعد من ذلك حينما يتهموننا نحن الذين كان لنا حظ الظهور والكتابة والنشر، بأننا نضع العقبات والعراقيل فى طريقهم، ونحرمهم الفرصة التى أعطاها لنا من سبقونا عندما أخذوا بأيدينا وساعدونا وعلمونا وأتاحوا لنا أن نكتب ونوقع بأسمائنا ونمسك بنجوم الشهرة.

وصدقنى أننى أقرأ كل رسالة من هذه الرسائل باهتمام، وأحاول استكشاف ما تحمله كلماتها وسطورها ولكننى نادرًا، بحكم خبرة طويلة فى هذا العمل الصحفى لها اليوم نحو ٣٥ عامًا، أقول نادرًا ما أستشف هذه الجوهرة المكنونة التى يتحدث عنها صاحبها ويريد من يجلو التراب عنها ويقدمها للجماهير أو ملايين القراء على حد قول بعضهم.

من المضحك أن كثيرًا من الذين يجرون وراء العمل الصحفى أو الأدبى يفعلون ذلك بسبب الشخصيات الصحفية التى يرونها فى الأفلام، وهى شخصيات ليس بينها وبين الواقع أية علاقة.. فليس هناك ذلك الصحفى الذى يكتب موضوعًا ناجحًا فيرقى بعده إلى رئيس تحرير.. أو ذلك الكاتب الذى يتصل من بيته ليتركوا له مكانًا فى الصفحة الأولى الى أن يصل إلى مكتبه ويكتب مقاله.. ولا هذا النموذج من المصورين الذين يقومون بتحميض ونشر أفلامهم فى بيوتهم.. أو الموضوع الذى كان له تأثير كبير فى زيادة التوزيع ثم تساءل القراء عن اختفائه وبدأ توزيع المجلة فى الهبوط.. إن كل هذه النماذج وغيرها مما تعرضه الأفلام لا يوجد إلا فى خيال كتّاب هذه الأفلام.. أما الواقع أو الحقيقة فإن أيًّا منها مختلف تمام الاختلاف..

إن العمل الصحفى عمل شاق بمعنى الكلمة.. وكثير من الذين يحلمون بالصحافة ينظرون إلى الأضواء التى تشع حول الأسماء المنشورة ويجرون وراء هذه الأضواء ويحلمون أن تكون لهم مثلها.. لعلهم أشبه بالفراش الذى يجذبه الضوء دون التنبه إلى أن وراء الضوء مصباحًا تحترق أسلاكه وتتوهج.. والسؤال هو من تريد أن تكون؟ الضوء أم المصباح؟

الضوء الذى يشع فى العيون ويبهر الأبصار، أم المصباح الذى تحترق أسلاكه وتتوهج؟

ربما لأن الكثيرين من الذين يطلقون على أنفسهم عشاق الصحافة والكلمة، يجرون وراء الضوء وكل أملهم هو النشر.. أن تنشر الصحف ما يكتبونه مذيلًا بأسمائهم.. النشر لديهم هو الهدف والأمل والمجد.. ومع أن مرحلة النشر هى مرحلة لا يصل إليها الكاتب أو الصحفى إلا بعد فترة طويلة من الجهد والمراس والتعب والعمل والاستمرار والإجادة.. فإنهم لا ينظرون إلى ذلك كله ويتعلقون بالنشر.. وهم على كل حال أرحم كثيرًا وأخف وطأة من الذين يريدون أن يعملوا أولًا فى الصحافة ثم يتعلموا الكتابة بعد ذلك!

عزيزى شريف:

إن كان لى أن أضع أمامك بعض ما اهتديت إليه خلال عملى الصحفى الطويل لكى أساعدك فى استكشاف آفاق نفسك وموهبتك الصحفية واحتمالات قدرتك على دخول ميدان العمل الصحفى بقوة وثقة، فإننى أرجو أن ألفت نظرك إلى ما يلى:

أولاً: إن العمل الصحفى بعيد تمامًا عما شاهدته فى الأفلام السينمائية، وإن ما يجرى فى أرض الواقع الصحفى لا يمت لا بصلة نسب أو قرابة أو حتى علاقة بما يجرى فى خيالات الذين كتبوا أو صوروا الشخصيات الصحفية فى أفلامهم وقصصهم.

ثانيًا: إن الكتابة الصحفية بنظرة شاملة يمكن تقسيمها إلى قسمين: الخبر والرأى.. وكل منهما فى حد ذاته فن مختلف.. كتابة الخبر وإن بدت سهلة أو عملاً روتينيًا فإنها فى الواقع فن.. وكثير من كتاب الأخبار تستطيع اكتشاف شخصيتهم وقلمهم من الخبر الذى يكتبونه. وبالطبع فإن كتابة الرأى هى فن آخر يختلف.. فكتابة الخبر هى فن عرض المعلومات والوقائع، أما كتابة الرأى فهى فن عرض الأفكار والرؤى..

وهناك فريق ثالث يحاول الجمع بين الاثنين، وهو ما يطلق عليه التحقيق الصحفى الذى يقوم فيه الكاتب أو الصحفى باستطلاع آراء الغير فى إحدى القضايا المثارة، وصبها للقارئ فى تشكيل يعكس شخصيته.

والتحقيق الصحفى لم يكن معروفًا حتى الأربعينات من هذا القرن.. فهو آخر ابتكارات الصحافة المصرية..

ثالثًا: إنك لكى تستطيع أن تعرف ذلك كله فإن أول ما أنصحك به هو أن تقرأ كثيرًا.. إن هناك ثلاثة أعمال رئيسية للصحفى أو الكاتب هى: القراءة والاتصالات والكتابة.. لا أظن أن هناك عملاً آخر للكاتب أو الصحفى غير

هذه الأعمال الثلاثة.. وفى وضعك الآن فإن نصيحتى إليك أن تمارس العملين الأول والثالث، أى القراءة والكتابة.

اقرأ كل ما تستطيع أن تصل إليه يدك.. وحاول وأنت تقرأ أن تكتشف: ماذا أعجبك؟ وماذا لم يعجبك؟ ولماذا؟.. وإذا أنت أمسكت الصحف الصادرة فى يوم واحد فحاول أن تقارن بين عرض كل منها لخبر واحد أو تحقيق واحد.. الأسلوب.. العنوان.. المضمون.. اللمسة الإنسانية.. ما الذى علق فى ذهنك من كل ما قرأت؟

رابعًا: آخر شىء تحاوله لكى تعمل بالصحافة هو أن تنشر.. وأول شىء تقوم به بعد القراءة أن تكتب.. اكتب لنفسك كل يوم فى أى موضوع تفكر فيه.. تصور أنك تكتب لإحدى الصحف وأنك مسئول فيها.. فماذا أنت فاعل؟

إنك قد لا تعرف أن جميع الكتاب لم يفكروا فى نشر ما كتبوه وإنما بدءوا بالكتابة المستمرة أولاً.. ذلك لأن الكتابة هى الرسم بالكلمات.. والرسم فى حد ذاته هو تعبير عن معان داخل الإنسان.. معان يريد أن يطلقها ويخرجها ويتنفسها.. والكتابة للصحفى مثل عملية التنفس.. إن الشهيق هو القراءة، والزفير هو الكتابة.. ويوم تشعر أنك مللت من الكتابة فاعرف أنك تفكر فى العمل الصحفى من باب الأضواء والشهرة لا من باب العشق والامتلاك.

خامسًا: إننى لا أريد أن أنصحك بشىء معين تقرؤه.. ولكن إذا أردت العمل الصحفى فلا أقل من أن تكون مُلما بتاريخ بلدك.. لا يمكن أن ينجح صحفى أو كاتب يجهل تاريخ بلده.. بل أضيف إلى ذلك تاريخ العالم.. ومن حسن الحظ أن التاريخ هو النميمة المشروعة التى تتناول الحكايات الكثيرة المشوقة.. وهكذا فإن التاريخ فوق أنه رواية مشوقة فهو اكتشاف للأصول التى ننتمى إليها.

سادسًا: حينما تقرأ ضع علامة تحت ما تريد أن يثبت فى ذهنك.. ثم بعد أن تنتهى من القراءة أعد النظر فيما قرأته، واقرأ العبارات التى وضعت تحتها خطا مرة أخرى لكى تحاول تثبيت المعلومات التى عرفتها فى ذهنك.

سابعًا: لا يستطيع راغب فى الاشتغال بالصحافة أو الكتابة الانفصال عن العالم الذى يعيش فيه.. ومعرفتك بالعالم تستدعي أن تعرف إحدى اللغتين الإنجليزية أو الفرنسية، وحبذا لو عرفت الاثنتين معًا.. ولكى تزداد معرفة باللغة تعلم أن تفتح القاموس وتعرف معانى الكلمات.. لا تستكثر المجهود الذى تقوم به فى ذلك بل أكثر منه.

ثامنًا: إذا وجدت نفسك تقلد أحد الكتاب فلا تستعجب من ذلك أو تشعر بالضيق أو الخوف، فكل الذين سبقوك إلى الكتابة كان فى خيالهم أن يقلدوا كتابًا آخرين.. وليس فى ذلك عيب، إنما العيب أن تتجمد داخل هذا الإطار من التقليد ولا تنمو وتكون فيها بعد شخصيتك المستقلة، وهو ما لا يمكن أن يحدث غير بعد سنوات.

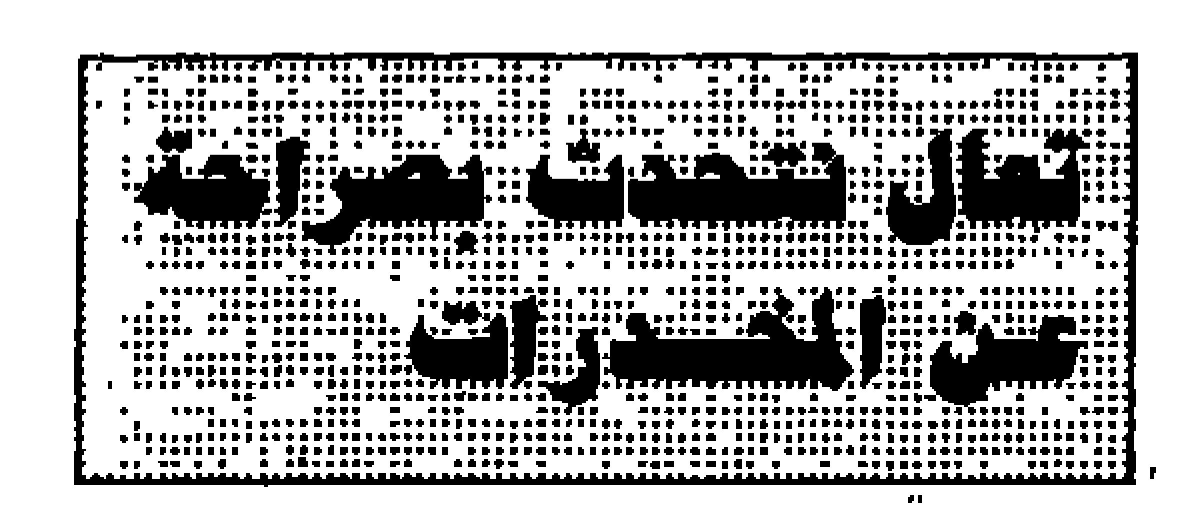
تاسعًا: لا تفرط فى الكتب التى تقرؤها، بل حاول أن تحتفظ بها.. وافعل نفس الشيء مع الصحف التى تقرؤها.. اقطع القصاصات التى تعجبك.. وضع عليها تاريخا..

عاشرًا: والآن ماذا تريد؟ هل تستطيع أن تفعل ذلك؟ هل يمكنك أن تواظب على ذلك؟ إذا استطعت فسوف تكون المصباح الذى تحترق أسلاكه وتتوهج وتنشر النور والأضواء.. أما إذا وجدت أن هذا الذى أقوله مبالغ فيه فأنت تبحث عن الأضواء لا المصباح.. أنت تبحث عن الصحافة كوظيفة لا عمل.. وهناك فرق.. إن الوظيفة لها ساعات حضور وانصراف.. أما العمل فهو حياة.. إنه لا يعرف المواعيد ولا الحدود.. إنه الحب والتضحية والإجادة.. وكما أنه ليس كل الأذكياء عقلاء بدليل أن كل النصابين والمحتالين واللصوص هم أذكياء ولكنهم يمارسون أفعالاً تؤدى بهم فى النهاية إلى مالا يقبله العقل، فكذلك ليس كل من دخل ميدان الصحافة أصبح كاتبًا.. أو صحفيا.. ذلك أن بعض أوضاع التعليم قد فرضت أن يدخل البعض إلى ميدان الصحافة للعمل فيها كأصحاب وظائف.. وقد اكتشفوا بعد دخولهم الميدان الصحفى أن الصحافة سباق ماراثون طويل.. يبدأ من أول لحظة يدخل فيها الإنسان هذا الميدان، ويستمر حتى آخر

لحظة من لحظات العمر.. ولكن قدراتهم تقف بهم عند أول الطريق أو منتصفه.. فيخرجون من السباق ويجلسون على الخط.. ويستكمل السباق من ارتوى بحب المهنة وماء عشقها إلى الأبد.

لك كل أمنياتى، وإلى لقاء فى رسالة قادمة بإذن الله.





عزيزى شريف:

أنت تعرف أننى تعودت على مناقشة كل القضايا التى أطرحها معك بكل الصراحة والوضوح. وبهذه الصراحة التى بيننا فإننى أريد أن أسألك: هل جربت المخدرات؟ هل تعاطيت بعضها؟ هل حدثك زملاؤك عنها؟ ماذا تعرف عن هذه المخدرات وتأثيرها؟

وأنا أسألك هذه الأسئلة اليوم لسببين.. أما السبب الأول فهو ما قرأته فى الصحف قبل أسابيع قليلة تحت عنوان «عصابة من أبناء الذوات بالإسكندرية وراء سرقة المرسيدس من أجل المخدرات». والخبر يكشف عنه عنوانه؛ ففى الإسكندرية لاحظت أجهزة الأمن ظاهرة تعدد حوادث سرقة السيارات المرسيدس وبطريقة واحدة عن طريق مفتاح مصطنع للسيارة المسروقة. وبعد أن تكرر الحادث مع ١٢ سيارة مرسيدس تم كشف السر، وتبين أن الذين قاموا بهذه السرقات مجموعة من الطلبة فيهم ابن الطبيب وابن المهندس وابن رجل الأعمال، وكلهم تجمعهم مدرسة ثانوية رفيعة المستوى.. وبالبحث تبين أن الدافع إلى السرقة هو إدمانهم المخدرات، ولم كانوا يسرقون السيارات لبيعها إلى التاجر الذى يمدهم «بالمزاج» الذى أدمنوه..

غير هذا السبب الخاص لإثارتى معك اليوم موضوع المخدرات هناك سبب يمكن أن يكون عامًا وهو بدء السنة الدراسية.. ذلك أننى عن خبرة أرى أن النشاط الذى يبدأ مع الدراسة سنويا لا يقتصر فقط على نشاط المكتبات وبيع

الكتب والكراريس والملابس والدروس الخصوصية، وإنما يمتد أيضًا إلى محاولة استثمار الدراسة من جانب تجار المخدرات فى نشر تجارتهم، معتمدين على عناصر السوء والشر الموجودة فى كل مجتمع بما فيه بالطبع مجتمع الطلبة سواء فى الثانوى أو الجامعات، ولما تتميز به مرحلة الشباب من غرور وحب استطلاع وخوض المغامرات..

وأنت لابد أنك سمعت عن الإغراءات أو الشباك التى ينصبها التجار لاصطياد ضحاياهم.. ومن أهم هذه الإغراءات عدم مطالبة الشاب فى البداية بأى ثمن يدفعه «لتجربة» شمة الهيرويين أو ابتلاع أحد الأقراص.. والتاجر يقدم هذه العينة المجانية لضحاياه إما بنفسه وإما عن طريق أحد الضحايا الذين استحوذ عليهم وأصبحوا فى قبضته كما سيصبح الضحية الجديدة بعد ذلك فى قبضته..

إنها مرة واثنتان وثلاث مرات وبعدها يصبح الإنسان مدمنًا لهذا المخدر، وبعد أن كان يقدم إليه مجانًا يبدأ هو فى البحث عنه فيفاجأ بمطالبته بالثمن الغالى الذى عليه أن يدفعه.. فقد انتهت فترة الإغراء وبدأت فترة السداد.. وربما وجد الشاب فى البداية القدرة لديه على أن يدفع الثمن، ولكن بسبب السعر الغالى لا يمكن لأى شاب أن يستمر فى سداد فاتورة المخدر الذى أدمنه؛ وهذه أول كارثة من كوارث الإدمان.. أن يصبح المدمن على استعداد لأن يفعل أى شيء من أجل الحصول على فلوس المزاج الذى أدمنه.. بعد أن جاءت قدمه وانزلقت إلى عالم المخدرات الرهيب.. وهو عالم رهيب فعلًا؛ لأن المادة والجشع والطمع والمكاسب الغريبة هى التى تحرك ديناميكية العمل فيه.

خذ مثلًا الهيرويين الذى أصبح ظاهرة واضحة فى معظم دول العالم، لانتشاره فى السنوات الأخيرة بصورة جعلت الدول المختلفة تتفق على عقد مؤتمر يخصص لمناقشة كيف تنقذ شبابها ومواطنيها منه..

ولعلمك فإن الهيرويين يتم تصنيعه من الأفيون.. وهذا الأفيون تكثر زراعته فى آسيا فى ثلاث دول بالذات هى: أفغانستان وباكستان وإيران.. وفى المتوسط

يتم تحويل كل عشرة كيلو جرامات من الأفيون إلى كيلو جرام واحد هيروين.

وفى مناطق انتاج الأفيون فإن ثمن الكيلو جرام منه فى حدود ألف دولار، أى أن كيلو الهيروين يكون سعره فى المتوسط عشرة آلاف أو ١٥ ألف دولار، ينفق التاجر مثلها لتهريبه ووصوله إلى أسواق الاستهلاك..

هل تعرف كم يدفع الزبائن الضحايا ثمنًا لهذا الكيلو الذى تكلف من ٢٠ إلى ٣٠ ألف دولار؟

أقل سعر يدفعه الزبائن فى كيلو الهيروين هو مليون دولار!! تصور.. هذا إذا بيع نقيا، ولكن من النادر أن يتم بيع الهيروين نقيا؛ لأن التاجر زيادة فى استنزاف الربح يضيف إليه مواد أخرى تضاعف السعر الى مليونين وربما أكثر..

وبالطبع ليست هناك فى العالم سلعة تحقق هذا الربح الرهيب الذى تدره هذه التجارة الخطيرة..

وبسبب هذه المكاسب تكونت العصابات الكبيرة التى تقود عمليات الشراء من المنتج والتهريب والتوزيع والتسويق..

إنها سلسلة غريبة من العمليات التى يدخل فيها تزوير جوازات السفر التى يسافر بها المهربون، واستئجار القتلة الذين يقتلون من يفتح فمه بكلمة، والتقاط الضحايا الذين يعهدون إليهم بمهمة التهريب..

والمهرب هو أول ضحية من ضحايا المخدرات، لأنه إذا تم الإمساك به أصبح عليه وحده أن يدفع الثمن غاليًا: حياته أو سنوات عمره التى سوف يقضيها وراء أسوار السجن.. ولعلمك هناك شباب كثير فى السجون المصرية حكم عليهم بعشرات السنين فى قضايا جلب مخدرات.. كلهم ضحايا.. كلهم تم التقاطهم وإغراؤهم وابتزاز براءتهم فى عمليات التهريب، وعندما نجحوا وأفلتوا من عيون الجمارك فى الموانئ والمطارات فإنهم أخذوا الفتات من التاجر الكبير الذى لن يشهدوه، أبدًا، بينما الربح الكبير أخذه التاجر.. أما إذا تم الإمساك بهم وهو ما يحدث دائمًا بصرف النظر عن نجاحهم فى أى مرة سابقة، فإنهم

وحدهم كما قلت هم الذين يدفعون الثمن؛ لأنهم لا يعرفون التاجر الكبير الذى يهربون لحسابه.

هؤلاء هم أول الضحايا.. شباب فى سن الزهور.. وقبل أن يضعوا أقدامهم على طريق العمل والإنتاج يجدون أنفسهم فى السجن لعشر أو ١٥ سنة!

ثم يأتى الضحية الثانية.. هؤلاء الزبائن الذين تم استدراجهم أولاً بالإغراء؛ حتى إذا وقعوا فى كمين الإدمان أصبحوا فريسة سهلة..

وأنا أذكر أن إحدى كليات الطب الأمريكية قامت بدراسة على ١٥٠٠ مدمن من الرجال والنساء فى مدينة نيو أورليانز الأمريكية.. وقد تبين من هذه الدراسة أن معظم المدمنين يصل ما يتعاطونه كل يوم إلى مابين ثلاث وخمس جرعات.. لكن أخطر مافى الدراسة هو محاولة الباحثين الأمريكيين استكشاف كيف يحصل هؤلاء المدمنون على ثمن المزاج اللعين الذى أدمنوه.. لقد كانت النتيجة رهيبة ولكنها تكشف بصراحة أول أثر من آثار الإدمان على ضحاياه.. ذلك أن البحث أوضح أنه من بين الـ ١٥٠٠ حالة هناك ٣٠٠ امرأة احترفن الدعارة لكى يشترين بالحصيلة ثمن المخدر، وهناك ٣٠٠ آخرون اشتغلوا فى ترويج المخدرات حتى يمكنهم أن يحصلوا بالمكسب على ثمن المخدر، وهناك ٣٠٠ آخرون تمكنوا من الإنفاق على شراء المخدرات عن طريق أجورهم التى يتعاطونها من أعمالهم أو ممتلكات أزواجهم، أما الـ ٦٠٠ الباقون فقد وجد البحث أنه لم تكن لديهم أية إمكانات لتحقيق الدخل الذى يشترون به حاجتهم من المخدرات، وكانت وسيلتهم الوحيدة لذلك هى السرقة.. السرقة من بيوتهم أولاً، ثم السرقة من الآخرين بعد ذلك.

وقد اكتشف البحث ظاهرة غريبة، وهى أن السارق لا يسرق فقط ثمن ما يعتقد أنه ثمن جرعة المخدر التى هو فى حاجة إليها، وإنما لضمان أن يبيع ما يسرقه بالثمن الذى هو فى حاجة إليه فإنه يسرق أشياء قيمتها أكبر كثيراً من الثمن الذى يحصل عليه. وبالحساب تبين للباحثين الأمريكيين أنه إذا كانت الجرعة الواحدة من الهيروين تكلف المدمن ٢٥ دولاراً فإن المدمن يسرق

ما قيمته ١٢٥ دولارًا لكي يحصل على الـ ٢٥ دولارًا.. وبشيء من التحفظ - هكذا يقول البحث - فإن الـ ٦٠٠ مدمن الذين لم يجدوا غير السرقة سبيلاً أمامهم للحصول على ثمن المخدرات أصبحوا يسرقون سنويا ما قيمته ١٢ مليون دولار!

إن مثل هذا ولا تعجب، قامت به مجموعة الطلبة الذين تم الإمساك بهم والقبض عليهم فى الإسكندرية.. فالسيارة المرسيدس التى ثمنها ٣٠ ألفًا أو ربما ٥٠ ألف جنيه، كانوا يبيعونها فى حدود ٥ آلاف جنيه فقط! وهو ما يعنى أن أهم أثر للمخدرات على المدمن ليس فقط فى تدمير خلايا مخه وفكره ورونقه وحيويته وصحته وشبابه وقوته وذكائه وعبقريته، وإنما أيضًا فى تدمير علاقات المدمن بالمجتمع.. فتصبح هذه العلاقة عبارة عن محاولة مستمرة لارتكاب المدمن أية جريمة تمكنه من الحصول على ثمن المخدر.. يكون المدمن على استعداد لأن يفعل أى شيء.. أن يسرق أو يقتل أو حتى يبيع نفسه.. ولا يهدأ هذا التفكير فيه إلا عندما يحصل على المخدر ويتعاطاه.. وهذا أغرب مافى دورة المخدرات.. أن يبدأ المدمن مجرمًا مع المجتمع.. ثم بعد أن ينال هدفه تبدأ المرحلة الثانية.. مرحلة إجرامه لنفسه.. لصحته.. لقوته.. لشبابه.. ذلك أن المخدرات معظمها من النوع المسكن.. وعندما يصل تأثيرها الى متعاطيها فإنه يشعر بالاسترخاء والهدوء.. بل بالجبن أيضًا فى بعض أنواع المخدرات كما بالنسبة للحشيش مثلاً.. ولكن هذا الهدوء والاسترخاء يدفع ثمنها من ذاته.. من نفسه.. من صحته.. ويصبح السؤال بعد فترة: هل هناك فائدة من حياة هذا المدمن؟

إن الحديث لا يزال طويلاً، وأنا أكتب إليك فيه بصراحة حتى تعرف الحقائق.. وفى رسالتى القادمة سوف أواصل معك الحديث لمزيد من الصراحة والمعلومات التى يجب أن تعرفها وأناقشها معك فى النور؛ حتى لا تلتقط معلوماتك من خفافيش الظلام وتجار هذه المغريات الذين يعتمدون على جهل الشباب، وأيضًا - وهذه ظاهرة لافتة للنظر ويجب أن أصارحك بها - عدم قيام الأبوين بمسئوليتهم فى مناقشة هذه القضية مع أولادهم، مطمئنين إلى أن أولادهم لا يمكن

أن يعرفوا طريق المخدرات.. بينما هذا الطريق هو الذى يسعى إليهم ويحاول الإيقاع بهم واصطيادهم..

لك كل أمنياتى واستعدادى لأن أجيب عن كل سؤال توجهه، وسيكون حديثى معك حديث الرجال الذين أعرف أنه سوف يقوم على أكتافهم مستقبل مصر، وإلى لقاء فى رسالة قادمة بإذن الله.



الدين والشرف والحياة
من أجـــل جرعـة

عزيزى شريف:

دق جرس التليفون فى مركز شرطة شيكاغو فى أمريكا، ليسمع الضابط النوبتجى صوت مواطن يبلغه بالعثور على طفل رضيع أمام باب البيت.

لم تستطع الشرطة معرفة شيء عن هذا الطفل.. فأودعته إحدى دور رعاية الأطفال على أمل أن يظهر له صاحب..

بعد أيام وفى دورية تقوم بها الشرطة تم القبض على عدد من النساء بتهمة ممارسة الدعارة وأودعن السجن..

إحداهن كانت تخبط رأسها فى جدار السجن.. وهى تصرخ.. وفيما بعد عرف أنها أدمنت الكوكايين، وأنها عندما جاء موعد تناولها الجرعة التى تعودت عليها أحست بالعذاب الرهيب الذى يخنق المدمنين.. وإلى حد ما استطاع طبيب السجن المتمرس على مثل هذه الحالات السيطرة على الموقف حتى هدأت، ولكن ماهى إلا دقائق حتى عادت إلى البكاء والصراخ.

هذه المرة لم تكن تبكى من عذاب الإدمان وحرمانها من الجرعة، ولكن لأنها أخيرًا تذكرت أنها كان لها طفل رضيع وأنها فى إحدى النوبات التى تهاجمها عندما يأتى موعد الجرعة قامت برهن الطفل عند أحد الجيران نظير ٥٠ دولارا. ولم تستطع الأم أن تجد وسيلة تكسب بها الدين الذى رهنت به طفلها غير ممارسة الدعارة.. ولكنها كانت تدخر كل دولار تكسبه لتشترى به مزيدًا من الكوكايين.

وتصاعدت المأساة عندما وجد الجار الذى رهنت الأم عنده طفلها.. أنه ليس فى حاجة إلى هذا الطفل، فألقى به أمام أقرب بيت وتركه، ولحسن الحظ أمكن تسليم الطفل إلى الشرطة.. ولحسن الحظ أيضًا تم اكتشاف أن هذا الطفل الضال هو نفسه الذى رهنته تلك المرأة من أجل جرعة مخدرات.

عزيزى شريف:

أردت أن أبدأ خطابى إليك هذا الشهر بتلك الحكاية الحديثة جدا، والتى جرت وقائعها فى الشهر الماضى، لأؤكد لك وأنا أواصل معك ما انقطع من حديث المخدرات، إلى أى حد يمكن أن تصل هذه المخدرات بالإنسان؟ فها هى ذى ترهن طفلها وتتخلى عن شرفها وتخسر حياتها من أجل جرعة..

إننى أعرف أنك تريد أن تسأل لماذا خلق الله هذه المخدرات فى الدنيا إذا كانت هى السبب فى كل تلك الكوارث؟

والواقع أن هذه المخدرات ليست فى الأصل هى السبب فيما يحدث للإنسان؛ ذلك أن الله عندما دل الإنسان عليها وعلى تأثيرها فإنما ليستفيد بها ويحسن استخدامها فى راحة الإنسانية.

هل يمكن لك أن تتصور عملية جراحية تجرى بدون بنج؟ كم ألف عملية تجرى كل يوم فى أنحاء العالم الواسع؟

إن هذا البنج الذى مكن الأطباء من إجراء آلاف العمليات الجراحية التى يفتحون فيها بطن المريض وصدره وأى جزء فى جسمه دون أن يحس المريض بألم.. هذا البنج هو نتاج تلك المخدرات التى تسأل: لماذا أوجدها الله؟

ثم غير هذا.. هل لديك فكرة عن آلام إصابات كالكسور والسرطان وبعض الأمراض العصبية بدون حقن المورفين وغيرها؟ وهى نتاج بعض أنواع المخدرات، ولم يكن من الممكن بدونها السيطرة على الآلام التى تصيب بعض المرضى، وتجعلهم يريدون - كما فى أزمة الكلى مثلًا - أن يعضوا الأرض.

إن هذه المخدرات فى الأصل ضرورة للإنسان، وبدونها كانت الإنسانية ستواجه آلامًا رهيبة.

والأطباء ومعامل الصيدليات تسمى المخدرات بالعقاقير، وبالمناسبة فإن العقار غير الدواء، فالعقار هو أى مادة كيماوية تؤثر على أساسيات الجسم، كما أنه الجزء النشيط فى تركيب الدواء، وهذا يعنى أن جميع الأدوية تحتوى على عقاقير، ولكن ليس كل عقار دواء، فالكحول والنيكوتين عقاقير موجودة فى الخمر والسجائر ولكنها ليست أدوية.

والمخدرات تدخل فى بند العقاقير المعروفة عالميا باسم DRUGS، وفى المؤتمر الذى عقدته الأمم المتحدة فى فيينا فى شهر يونيو الماضى والذى كان مخصصًا لمناقشة المخدرات، فإن اسم المؤتمر كان «مؤتمر إساءة استعمال العقاقير» وهذا يعنى أن هذه العقاقير أو المخدرات قد وجدت أصلًا لتقوم بدور فى خدمة البشرية ومجال الطب، ولكن الإنسان استطاع أن يسىء استخدامها ويحولها من رسول خير لإسعاده وراحته وتخفيف آلامه.. إلى معول لتحطيم خلايا مخه وروحه وفكره وشخصيته..

إن أقدم أنواع المخدرات وأشهرها إلى وقت قريب هو الحشيش..

وهذا الحشيش يتم استخراجه من زهور نبات اسمه القنب، يبلغ طول ارتفاعه عن الأرض نحو مترين، مما يصعب معه بسبب طوله زراعته سرا.

وأشهر الدول التى تتم فيها زراعة الحشيش أفغانستان وباكستان ولبنان وتركيا والمغرب والمكسيك وكولومبيا.

ومن الطرق التقليدية فى تصنيع الحشيش ضغطه إلى ما يشبه الكعك، ويختلف لون الحشيش بحسب مكان زراعته، لكن ألوانه الغالبة هى الأخضر والأسود والبنى الغامق.

وكذلك فإن أشهر وسائل استخدام الحشيش تدخينه بعد تقطيعه إلى قطع صغيرة وخلطه مع دخان إحدى السجائر أو التومباك المعروف بالمعسل الذى يتم تدخينه بواسطة «الجوزة».

وشىء شبيه بالحشيش عرفوه فى أوروبا وأمريكا اسمه «المارجوانا»، والمارجوانا يتم الحصول عليها من نبات القنب أيضا، ولكن إذا كان الحشيش

يستخرج من زهور هذا النبات فإن الماريجوانا يتم الحصول عليها من الأجزاء العليا فى الزهور الجافة، والماريجوانا عادة أخف من الحشيش.

وفى مناطق إنتاج الحشيش فإن طن الحشيش يباع بنحو ٥٠٠ دولار، ولكن هذا السعر يرتفع إلى أكثر من ٢٠ ألف دولار عندما يصل إلى زبائنه فى مختلف الدول، ومعظمهم من الشباب.

ومن المؤكد أن أهم سبب لتناول الشباب للحشيش هو غريزة حب الاستطلاع، تلك الغريزة التى تدفع الشاب إلى اجتياز آفاق المجهول باعتباره مغامرة يستمتع نفسيا بمحاولتها.

وكما أن الخير موجود والشر موجود فإن كثيرين من الشباب يجدون من زملاء الشر من يسهلون لهم تلك التجربة، ويزينون لهم الآثار المختلفة التى سيحدثها الحشيش لديهم، وكلها خيالات وأوهام تساعد على تأكيدها سحب دخان الحشيش المحترق، ولكن الشىء الثابت أن أهم تأثير للحشيش هو إحساس الواقع تحت تأثيره بالخوف الذى يبلغ درجة الجبن، وأيضًا بعدم تقدير المسافات أو الأشياء، فهو قد يكون بينه وبين نهاية الشارع الذى يريد أن يصل إليه مسافة لا تتجاوز عشرة أمتار لكنه يتصورها ألف متر.. وهو قد يرى نقطة ماء فوق الأرض فيتصورها بركة يخوض فيها، وبالفعل يمد يده ليرفع رجل بنطلونه حتى لا تبتل بالماء، ويراعى الحذر فى مشيته إحساسًا منه بأنه يخوض فى البركة!

وفى دراسة أعدتها جمعية سويدية عن المظاهر التى تصيب الشباب الذين يتعاطون الحشيش، حددت الدراسة قائمة طويلة من هذه المظاهر، طلبت الجمعية من أولياء أمور الطلبة ملاحظتها على أبنائهم لاستكشاف تعاملهم مع الحشيش.

وهذه القائمة تضم المظاهر التالية:

١ - يستيقظ الشاب متعبًا وفى الغالب يفوته موعد المدرسة.

٢ - يبدو قلقًا عصبيا فى يوم وسعيدًا نشيطًا فى اليوم التالى.

٣ - الميل إلى الخروج ومغادرة البيت يفوق كثيرًا رغبته فى البقاء داخل البيت.

٤ - يكون له عادة أصحاب جدد غير معروفين.

٥ - لا يجيد الإصغاء ويكون عادة مكتئبا.

٦ - تظهر فى البيت ظاهرة اختفاء نقود منه، وتظهر على الشاب ميول الاقتراض وربما يبيع بعض الأشياء من المنزل.

٧ - تبدو عليه علامات التفكير بطريقة جديدة غير مألوفة منه، ويتحدث عن أفكار غريبة.

٨ - يستخدم يديه فى حركات ربما غير إرادية، وله نظرة غريبة حادة.

٩ - احمرار العينين من الظواهر المألوفة.

١٠ - يميل إلى تناول المأكولات الحلوة خاصة فى المساء.

١١ - يشعر بالعطش ويكح عادة كثيرًا.

١٢ - تهاجمه الأحلام المفزعة والكوابيس.

وتقول الدراسة إنه مع إدمان الشاب فإن هناك أعراضًا أخرى مؤكدة تظهر عليه، منها أنه يسهل إثارته وأنه لا يجيد الاستماع ويكون ملولا وينسحب بسرعة من أى مكان لأنه يميل إلى الانطواء وكثيرًا ما يصل إلى مرحلة لا يأبه فيها بأى شيء، فلا رغبة فى العمل ولا فى الذهاب إلى المدرسة ولا حتى الاهتمام بالعلاقة مع الجنس الآخر.

وهذه ليست إلا أعراضًا ظاهرة، أما طبيا فإن إصابة مدخنى الحشيش بالسرطان أكثر كثيرًا من غيرهم.. لأنهم يتعاملون مع صنفين فيهما أكبر نسبة من أسباب الإصابة بالسرطان، أحدهما نيكوتين الدخان، والثانى الحشيش نفسه.

وصحيح أن الحشيش هو أخف أنواع المخدرات التى سأحدثك عنها فى رسالتى القادمة، وربما كان من صفاته أن التخلص منه ليس فى صعوبة الأنواع الأخرى التى تؤثر على خلايا المخ، بينما تأثير الحشيش يمتد إلى الخلايا العصبية مما يؤثر على حيوية الشاب وقدرته الجسمانية ويجعله أكبر كثيرًا من سنه، وهكذا فإنه فى مقابل المتعة الخيالية التى يجرى وراءها الشاب يفقد الكثير من شبابه.. تتضاءل قوته.. تتبلد مشاعره.. يفقد روح الحماسة، فهل تعادل التضحية بالشباب وقوته ومشاعره وحماسته متعة الدقائق التى يمضيها الشاب مع سحب الدخان؟

إن الحياة خيار مستمر.. عليك أن تختار فيها تقريبًا كل يوم بل ربما كل ساعة بين شيئين: تذاكر أو لا تذاكر.. تصلى أو لا تصلى.. تخرج مع رفاق السوء وتترك نفسك كرة يتلاعبون بها، أو تثبت قوتك وتختار إرادتك؟ الخيار دائمًا لك، وكل ما أستطيعه هو أن أحاول إضاءة الطريق أمامك بخبرة سابقة ومعرفة أوسع.. وأنا واثق أنك عندما تعرف سوف تقرر وتختار ما يجب أن يكون.. لك كل أمنياتى وإلى أن نلتقى فى رسالة قادمة بإذن الله.



بعد اعترافات الفيشاوى
حتى لا تفسد صنع الخالق

عزيزى شريف:

هاهو ذا شهر جديد يبدأ.. وإن كان يختلف عن الشهور السابقة فى إشارته الواضحة إلى بداية سنة جديدة من عمر الإنسان والبشرية والتاريخ. ولابد أنه قد مر عليك فى قراءاتك أن المصريين القدماء كانوا أول من قاسوا الزمن وعرفوا السنة والشهور..

لقد كانت عبقرية بالفعل أن يتوصلوا إلى تحقيق ذلك بغير الساعات التقليدية الموجودة اليوم.. ومع ذلك فقد أمكنهم تأمل الحياة وظروفها ومتابعتها بكل دقة، حتى أمكنهم معرفة هذا المقياس الجديد الذى اسمه سنة.. وأنت تعرف أن من السهل معرفة اليوم بشقيه الليل والنهار، وأنه لم يكن صعبًا عليهم معرفة اليوم، فكيف عرفوا السنة والشهور؟ لقد أخذوا يتابعون الأيام ويراقبونها، ولاحظوا تغير الجو من فترة لأخرى.. لقد جاء وقت كان هناك برد عقبه جو معتدل ثم جو حار ثم جو مائل إلى البرودة بعض الشىء ثم جو بارد فمعتدل فحار وهكذا.. تتابع منتظم مستمر لحالة الجو.. ومن هذه المتابعة عرفوا الفصول الجوية وتتابعها، ثم حصروها فى مقياس زمنى تمكنوا بعده من تقسيم السنة إلى ١٢ شهرًا بحسب متابعتهم لدورة القمر، وأعطوا كل شهر ٣٠ يومًا.. وكان كل همهم من هذا التقويم حساب مواعيد الزراعة من بذر وحصاد، ومواعيد ارتفاع منسوب نهر النيل..

هناك بالطبع تفاصيل كثيرة بالنسبة للتقويم الخاص بشهور السنة الإفرنجية، ولكن أهم ما يجب أن تعرفه أنها كانت من ابتكار الرومان وأنها تعرضت لفترة طويلة لعدم الدقة؛ إلى أن جاء الحاكم الرومانى جريجورى الثالث عام ١٥٨٢ وأدخل تصحيحًا على الأخطاء التى كانت تتعرض لها حسابات الشهور، وأعطى هذه الشهور الأسماء الإفرنجية التى نتداولها اليوم وأطلق اسمه شخصيا على أول هذه الشهور (يناير) بعد أن جعل أول يناير هو أول السنة، وكان يوم ٢٥ مارس من قبل هو أول أيام السنة..

ومنذ ذلك الوقت لم يتغير التقويم، ولم يتغير الأساس الذى قام عليه حساب الزمن.. فهذا الحساب يعتمد على حركات الأجرام السماوية وأهمها الأرض والقمر.

إن القمر يدور حول الأرض، والأرض تدور حول الشمس.. ومن هذا الدوران تمضى الحياة.. كل الأجرام السماوية فى حالة دوران مستمر.. وبالحساب الدقيق اكتشفوا أن الأرض تتم دورة كاملة حول الشمس فى ٣٦٥ يومًا و ٥ ساعات و٤٨ دقيقة و٤٦ ثانية.. كل دورة تتم فى نفس الموعد المحدد باليوم والساعة والدقيقة والثانية.. أو ما يعنى أن دورة الأرض حول الشمس تقطع ٣٦٥ يومًا وربع يوم، وهو ما جعل الحاكم الرومانى جريجورى الثالث يتوصل إلى ابتكار سنة كل أربع سنوات من ٣٦٦ يومًا لحل مشكلة ربع اليوم.

عزيزى شريف:

ألم يلفت نظرك شىء فى هذا الذى قلته؟ إننى شخصيًا توقفت أمام دقة الوقت الذى تتم فيه الأرض دورتها حول الشمس.. من المؤكد أن كل جرم يدور حول جرم آخر له موعد ثابت تتم فيه هذه الدورة. ليس هناك ثانية ناقصة أو زائدة.. ثم أن الحياة كلها نوع من الدوران.. بسرعة معينة حددها الخالق ونظمها ونسقها وحمى بعضها من تدخل الإنسان، وإلا تصور لو أن الإنسان هو الذى كانت له قدرة التحكم فى سرعة الأرض أو أى جرم من الأجرام! تخيل لو أن حاكمًا أو سلطانًا أو إمبراطورًا مجنونًا أو مختلًا أتاحت له الأقدار يومًا أن يتحكم فى هذه السرعات.. أى كارثة كان يمكن أن يتعرض لها العالم؟

سوف أضرب لك مثلاً واحدًا أوصل به ما يبدو أنه انقطع من حديث بدأته قبل رسالتين مضتا، وكنت أتحدث فيهما عن المخدرات والهيروبين بالذات.

لا تعجب وأنا أنتقل بك من الحديث عن بداية سنة وحكاية التقويم ودوران الأجرام حول أجرام أخرى..

إن الدوران كما قلت لك هو سر الحياة.. ويوم يتوقف هذا الدوران فى أى كائن تنتهى الحياة.. الإنسان أيضًا حياته معلقة على استمرار الدوران الذى هو سر الحياة.. فهل تعرف كيف؟

إن أى بيت مهما صغر أو كبر وحدته هى الطوبة.. أو ذرة التراب التى منها الطوبة.. وكذلك الإنسان.. وحدته الأساسية هى ما يسمى علميا بالخلية.. والخلية عبارة عن نواة ومادة أخرى حار فيها العلماء اسمها البروتوبلازم.. وسر حيرتهم أنهم عرفوا تركيب ومكونات هذا البروتوبلازم لكنهم لم يستطيعوا حتى اليوم أن يتوصلوا إلى صنعه..

ثم إنهم اكتشفوا أن هذا البروتوبلازم فى كل خلية يدور بصورة مستمرة حول نواة الخلية.. حركة لها سرعتها التى حددها الخالق وأحكم توازنها لكى يستطيع الإنسان أن يواجه الحياة..

ثم كانت ملاحظة أخرى.. أنه إذا زادت سرعة دوران هذا البروتوبلازم على الحد الذى حدده له الخالق فإن الإنسان يختل.. ابسط نموذج على ذلك ما يحدث عندما يلمس الإنسان سلكًا كهربائيا.. هذا التيار الغريب الجارف الذى يصيبه ويجعله ينتفض ما سببه؟ سوف تقول إنها الكهرباء انتقلت إليه، وهذا صحيح، ولكن ما الذى فعلته هذه الكهرباء فى جسم الإنسان؟ إنها حركت البروتوبلازم داخل الخلايا بسرعة جنونية.. كل الخلايا اختلت سرعتها المنضبطة عليها، وخرجت عن حدود سرعتها، فكان هذا «الماس» الذى ينتفض له الإنسان عند ملامسة أى سلك كهربائى والذى لابد وأن ينتهى إلى الموت صعقًا لو أن الإنسان لم يقفز بسرعة ويبتعد عن الكهرباء..

شىء مثل ذلك وجدوه يحدث مع الهيروبين.. عندما يتعاطى الإنسان الهيروين..

كانت التجربة مثيرة جدا لكنها بالغة الأهمية.. ففى معامل الاختبار جاءوا بعدد من الخلايا الحية ووضعوها تحت المناظير المكبرة وأضافوا إلى المحلول الذى تعيش فيه كمية من الهيروين.. كمية بالغة الضآلة لكن ذراتها بدت تحت الميكروسكوبات كبيرة وضخمة..

وكان المشهد مروعًا ورهيبًا فى الوقت نفسه..

الخلايا الحية بدأت تلتهم ذرات الهيروين.. وكان أول رد فعل أن السرعة التى يدور بها البروتوبلازم داخل الخلايا قد انخفضت عن معدلها المنضبطة عليه..

وعادوا يرقبون بدهشة ما يحدث بعد ذلك..

وجدوا الخلايا الحية بعد أن التهمت كل ذرات الهيروين قد استمرت حركة البروتوبلازم داخلها فى حركتها البطيئة المنخفضة، ثم فجأة وكما لو أن تيارًا كهربائيًا مجنونًا أصابها.. انطلقت فى سرعة بالغة نشيطة أسرع كثيرًا من المعدل الذى كانت منضبطة عليه.. ولم تهدأ هذه السرعة إلا بعد أن ألقوا إليها بذرات جديدة من الهيروين!

ومن هذه التجربة عرف العلماء لأول مرة وأدركوا التأثير الذى يقع مدمن الهيروين أسيرًا له..

فالذى يحدث أنه عند تعاطى الهيروين فإن حركة البروتوبلازم داخل خلايا الإنسان تنخفض عن معدلها، إلى أن تقوم الخلايا بالتهام كل جرعة الهيروين التى وصلت إليها، فتنتفض هذه الخلايا بسرعة بصورة جنونية.. وحتى تعرف حجم تأثير هذه السرعة يجب أن تعرف أولاً عدد الخلايا التى تتعرض لمثل هذا التغيير.. فهى ليست ألف خلية أو مائة ألف خلية أو حتى مليون خلية وإنما هى ١٣ ألف مليون خلية!

١٣ ألف مليون خلية تسرع حركة البروتوبلازم داخلها بصورة مجنونة.. تمامًا كما لو أنك أطلقت داخلك ١٣ ألف مليون سيارة مجنونة.. تصور حجم تأثيرها على رأس الإنسان وصدره وأعصابه وأطرافه وجسمه كله.. تصور ١٣ ألف مليون أصبع تدفعك، و١٣ ألف مليون يد تهزك.. إنها نيران.. قنبلة ذرية ملتهبة

داخل الإنسان يجد نفسه مضطرا لإبطال مفعولها بإلقاء مزيد من الهيروين إليها فتبطئ حركة البروتوبلازم، ويشعر المتعاطى بالتوازن والهدوء النسبى، إلى أن ينتهى تعامل الخلايا مع الهيروين فتعود السرعة المجنونة من جديد.. وهكذا دوامة رهيبة يضعف أمامها أى إنسان..

عزيزى شريف:

لقد كان من المصادفات الغريبة بعد أن بدأت معك حديثًا عن المخدرات والهيروين قبل شهرين.. أننى استمعت إلى وصف كامل ودقيق عن تأثير الهيروين من فنان اعترف لى بأنه وقع ضحيته، واستطاع بمعجزة من الله وشاركت فيها زوجته أن يخرج من جحيم هذا الهيروين ويضع قدمه على أول طريق النجاة.

هذا الفنان هو الممثل السينمائى والمسرحى والتليفزيونى فاروق الفيشاوى، وأعترف لك مخلصًا يا عزيزى شريف أننى قبل أن أستمع إلى اعترافات فاروق الفيشاوى فإننى كنت أعتقد أن ما أقرؤه عن تأثير الهيروين على المتعاطين كان فيه مبالغة بعض الشىء، فالإنسان إذا أدمن أى شىء يستطيع بقرار منه وإرادة قوية أن يتخلص من إدمانه.. ثم إن هناك إلى جانب رفاق الشر، أصدقاء الخير الذين لابد أن يقولوا له «عيب» وينصحوه ويهتدى بنصيحتهم.. ولكننى اكتشفت من فاروق الفيشاوى أن الهيروين لا يترك للذى يتعاطاه فرصة التفكير فى التخلص منه.. إنه يسيطر عليه بصورة وصفها لى فاروق بأن كل شىء فى حياة مدمن الهيروين يتلخص فى شىء واحد هو تمكنه من الحصول على هذا الهيروين.. أى شىء آخر لايهم.. لا العمل ولا الحب ولا الأبناء ولا الآباء ولا الشهرة.. المهم هو ضمان الحصول على الهيروين.. ولعل هذا هو الذى جعلنى أحاول متابعة ومعرفة الأثر العلمى الذى يحدثه هذا الهيروين فى داخل الإنسان، إلى أن اكتشفت سر التأثير الرهيب الذى يحدثه هذا السم اللعين على حركة البروتوبلازم فى الخلايا.. ولو أننا أمعنا الفكر قليلاً لوجدنا أن الإنسان استطاع أن يتدخل فى سرعة الدوران التى حددها الخالق وجعلها منضبطة مع توازن الإنسان فى نومه واستيقاظه.. تدخل الإنسان فى هذه السرعة فكانت النتيجة أنه

أفسدها وأخل بها، وجاءت الكارثة عليه..

إن علاج المدمن كما قلت لك بالغ الصعوبة، وبالحساب الدقيق فإن أقل من عشرين فى المائة هم الذين يكتب لهم الشفاء من إدمانه..

ولكن هناك وسيلة مضمونة وسهلة وميسرة لنجاة أى إنسان منه، هى ألا يحاول تجربته.. وهذا ما جعلنى أكتب إليك كثيرًا عنه، لقد حدثتك فى رسالة سابقة أنه يتم تصنيعه من الأفيون تقريبًا بمعدل كيلوجرام من كل عشرة كيلو جرامات من الأفيون، وهذا يعطيك فكرة عن أن تأثيره عشرة أمثال تأثير الأفيون.. وقلت لك فى رسالة سابقة، إنه حتى اليوم لا يوجد مثيل لهذا الهيروين فى المكاسب التى يحققها للذين يتاجرون فيه، وهو ما يجعلهم يلهثون وراء محاولة تهريبه ونشره لكى يكثر زبائنه وتتضخم مكاسبهم التى تتجاوز المليون جنيه فى الكيلوجرام الواحد!

ولا تعجب فأسوأ أنواع الهيروين وهو النوع المكسيكى الذى كان يتعاطاه فاروق الفيشاوى كان يدفع ٦٠٠ جنيه يوميا ثمنًا لحصوله على جرامين منه.. أى أن الجرام ثمنه ٣٠٠ جنيه، وهو سعر جملة.. لأن هذا الجرام يتم توزيعه إلى شعرات ضئيلة أصغرها يعادل واحدا على ٢٠ من الجرام وتباع بـ ٤٠ جنيهًا، مما يرفع سعر الجرام الواحد فى القطاعى إلى ٨٠٠ جنيه..

والعادة أن يبدأ المتعاطى بأقل كمية، ثم مع الأيام يجد انها غير كافية، وهكذا حتى يصل الى ما وصل إليه فاروق الفيشاوى الذى كان يستهلك جرامين كل يوم!

وليس هناك بالطبع من يستطيع أن يتحمل هذه الأموال، ولهذا انتهى كل الذين تعاملوا مع الهيروين إلى الخراب.. الخراب الحقيقى الذى وصل إلى حد بيع المدمن لبدله وأحذيته القديمة، ثم بعد ذلك ارتكاب أى جريمة للحصول على المال.. ثم بعد ذلك كله النهاية المؤكدة وهى إحدى ثلاث نهايات: السجن أو الجنون أو الموت! لم يعرف التاريخ مدمنًا لم ينته بغير إحدى هذه النهايات الثلاث.. والخطير أن زبانيته يبحثون عن زبائنهم بين الشباب.. على أساس أنهم الأقل خبرة والأكثر جرأة وحبا للمغامرة والمخاطرة.

ولعلى أضيف إلى ذلك جهل شبابنا، وأيضًا ما يلقى إليهم من أوهام تتعلق بتأثيراته الجنسية.

ودعنى فى ذلك أقل لك نقلاً عن كل الذين عانوا التجربة.. إن جميع أنواع المخدرات بغير استثناء تضعف العلاقة الجنسية وتقتلها.. والسبب منطقى جدا.. فالمخدرات خصوصًا المنبهة والمنشطة مثل الهيروين.. تأثيرها كله على الجهاز العصبى الذى تجعله متنبهًا ومتيقظًا، وتحرم المتعاطى من النوم تحت تأثير المنشط.. والواقع أن المدمن يواجه حالة من الانفصال بين جهازه العصبى المتركز فى دماغه.. وجسمه وعضلاته.. فالجهاز العصبى لا ينام وفى حالة تنبه أو نشاط، بينما الجسم فى حاجة إلى النوم.. وبسبب حرمانه من النوم فإن قوة العضلات تضعف وتخور، ويفقد الإنسان قدرته على الجنس، لأنه بغير القوة الجسمانية يصبح الجسم كالمريض الذى لا حول ولا قوة له جنسيا..

هذه هى الحقيقة.. أقولها بكل البساطة والمنطق والوضوح لكى تعرف.. فالمعرفة هى النور الذى تستطيع ان تطرد به الذين يحاولون التسلل إليك فى الظلام لكى يغروك بشياطينهم.. وأية قوة مهما كانت رقيبة عليك تستطيع ان تهرب منها وتفلت منها، ولكن هناك ضميرك.. داخلك.. عقلك.. تفكيرك.. معرفتك.. هذه كلها لوازم مرافقة لك تستطيع أن تدلك وتهديك وتجعلك قادرًا على محاربة جيوش الشر وقهرهم..

كل سنة وأنت طيب، وإلى أن نلتقى فى رسالة جديدة أتمنى لك عامًا سعيدًا وصحة جيدة تهنأ بها ويهنأ بها وطنك وكل أحبائك.





عزيزى شريف:

قبل أيام عدت من جولة صحفية سريعة زرت فيها كل دول الخليج العربى التى أصبح كل مصرى على معرفة بها.. وقد اتيح لى منذ عشرين سنة أو أكثر قليلا أن أزور هذه الدول وأشهد خطواتها الأولى على طريق الانتقال من القرن الثامن عشر الذى كانت تعيش فيه إلى القرن العشرين الذى نعيش فيه.

كانت البداية فعلا متواضعة، وكان لدى هذه الدول عذرها؛ فهى فى معظمها بلاد صحراوية لا تكاد تحقق دخلا يذكر... وأكثر من ذلك فقد ظلت فترة طويلة تحت السيطرة الإنجليزية، وعندما كتب لها أن تنتقل إلى عصر البترول، فإنها ظلت سنوات طويلة أسيرة الشركات الاحتكارية العملاقة، وعددها على وجه التحديد سبع شركات، كان إنتاج البترول وتسويقه وتكريره فى كل العالم عدا دول الكتلة الشرقية يخضع لها كلية. وهكذا فإن هذه الدول سياسيًّا كانت تحت السيطرة الإنجليزية، وبتروليًا كانت تحت الهيمنة الاحتكارية..

لقد تغير الموقف اليوم بالطبع فى هذه الدول، ولابد أن أؤكد لك ان حرب أكتوبر عام ٧٣ قد ساعدت جميع دول البترول على تحرير ثروتها من قبضة الشركات.. ولقد أدى ذلك إلى زيادة دخل هذه الدول، وكان من حسن حظها أن حرب أكتوبر ساعدت - بسبب تخفيض الإنتاج البترولى الذى أرادت به هذه الدول أن تشارك فى الحرب - على زيادة حاجة الدول المستهلكة إلى البترول، ومن ثم قامت دول الخليج برفع سعر بترولها كثيرا.. ومن حوالى دولار واحد كان

حصيلة هذه الدول من كل برميل تنتجه حتى عام ٧٠، فإنها أصبحت تحصل على أكثر من ٣٠ دولارا عام ٨٠..

ولقد كانت قصة البترول فى هذه الدول على كل حال من أجمل الحكايات وأكثرها إثارة، خصوصا فى هذه الفترة التاريخية الفريدة التى بدأ فيها العالم كله وكما لو أنه وقف على أطراف أعصابه مشدودا إلى كل حركة، وكل قرار تصدره دول البترول.. لعل الظروف تسمح لى يوما أن أكتب لك عن هذه القصة الرائعة التى يجب أن تعرفها؛ فقد كان من حظى أننى عشت معظم فصولها وحضرت كثيرًا من مشاهدها المثيرة..

عشر سنوات على كل حال باعدت بينى وبين هذه الدول فى الخليج العربى..

عشر سنوات فترة ليست طويلة، ولكن التغيير الذى حدث فى هذه الدول كان بالفعل كبيرًا.. كلها تغيرت.. كلها تم تعميرها على أساس تخطيط واع بعيد النظر.. تخطيط يعرف أن كل شىء دائما فى زيادة.. الناس فى زيادة، المبانى فى زيادة، وسائل الانتقال فى زيادة، ولابد للتخطيط ألا يصادر احتياجات المستقبل لهذه الزيادة، بل عليه أن يتوقعها ويحسبها، ويترك للأجيال القادمة فرصة شكر الأجداد الذين دبروا لهم احتياجاتهم.. ولعل هذا ما نعانيه فى مصر.. فالزيادة الرهيبة التى نزيدها سكانا ومبانى وسيارات ومدارس ومستشفيات و... إلخ لا تستطيع مدننا سواء فى القاهرة أو فى الأقاليم أن تستوعبها..

دول الخليج استعدت لهذا المستقبل من اليوم، ولكن الملاحظة اللافتة للنظر وهو ما قصدته فى الكتابة إليك، كثرة عدد المصريين الذين يعملون فى هذه الدول، والإخلاص الجاد الذى يمارسون به أعمالهم. هناك آلاف المصريين الذين يعملون فى كافة المجالات، لكن ما يلفت النظر أن معظمهم من الشباب، وأنهم جميعا يعملون عملا جادا مخلصا.. عملا ملتزما مسئولا.. عملا يبنى ويضيف ويعمر..

سألت نفسى وأنا أتأمل حركة هذا الشباب المصرى: لماذا يعملون هناك بكل هذا الجد والإخلاص والتفانى والاندماج، ولا أجدهم كذلك فى بلدهم؟

لا أقول ذلك بالنسبة لدول الخليج بالذات، وإنما أقوله بصفة عامة عن كل مصرى شاب يسافر إلى الخارج..

الشاب المصرى لا يبحث فى هذه الدول عن ثغرات القانون المطبق لكى يحصل على إجازة أو يتمارض أو يهرب من العمل... لا يضيع وقته هناك فى الحكايات وقراءة الصحف أثناء العمل، لا يخرج «ساندوتش» من درج مكتبه ويأكله ويطلب كوب شاى ويترك المواطنين الذين قصدوه حتى ينتهى من الساندوتش وكوب الشاى..

المصرى هناك فى هذه الدول.. إذا بحثنا نجده أول الذاهبين إلى عملهم، وآخر الذين يغادرونه.. المصرى هناك من النادر أن يحصل على إجازة، أو يحصل على إنذار أو عقوبة... هناك يبدو أن للشباب المصرى معدنا مختلفا غير المعدن الذى نراه فى بلادنا فى المكاتب ومواقع الخدمة.. وإن كانت مصر فى أمس الحاجة إلى شىء اليوم، فإنما إلى مثل هذا الجهد والعمل والإخلاص الذى يؤديه شبابها فى كل مكان يذهبون للعمل فيه خارج مصر..

ألسنا هنا نتحدث عن زيادة الإنتاج؟ ألسنا نقول إنه لا حل لمشاكلنا إلا أن يزيد إنتاجنا بمضاعفة قدراتنا وزيادة عطائنا؟

لماذا لا يخلص شبابنا إذن فى داخل مصر نفس إخلاصه خارج مصر؟ هل هو الأجر أو المرتب الذى يحصل عليه؟

أعرف شبانا مصريين يعملون بالخارج ولكن بالكاد يكفيهم الأجر الذى يحصلون عليه.

وأعرف شبابا كثيرين لا يستطيعون مع العمل المرهق الذى يستغرق كل وقتهم فى الدول التى يعملون فيها، أن يجدوا وقتا للاستمتاع بالحياة.. ومع ذلك فهم يستمتعون بالعمل الذى يؤدونه ليس من أجل الفلوس، وإنما لأنهم وصلوا إلى مرحلة الاستمتاع بالعمل، تماما مثل اللاعب الذى يحب لعبة ويشعر بالمتعة الكبيرة وهو يمارسها رغم كل الجهد الذى يبذله، بل إنه بدون هذا الجهد لا يشعر بأنه لعب أو قام بواجبه..

الحكاية كما يبدو ليست حكاية الفلوس وإنما حكاية بلوغ الانسان نقطة الاستمتاع بالعمل، نقطة اكتشاف أن الجهد كلما زاد كانت له حلاوته الخاصة التى تكسب النفس رضا وترتفع بالأحاسيس بعد أن أصبح صاحبها مسئولا...

بكل أسف فإن شبابنا فى مصر لم يصلوا، أو فلنقل إن كثيرا منهم لم يصلوا إلى هذه النقطة الساحرة التى تشبه النقطة التى يبلغ فيها رجل الفضاء مرحلة انعدام الوزن، فيتحول مهما كان ثقيلا إلى ريشة خفيفة تستطيع الطيران بلا جناحين...

كيف نجعل شبابنا فى مصر يبلغ هذه النقطة؟

كيف نجعله يشعر أن بلده فى حاجة إلى نفس العطاء الذى يقدمه راضيا سعيدا فى الخارج؟..

انظر إلى العامل المصرى داخل مصر تجده يعمل قليلا ولكنه كثير الشكوى..

العامل المصرى خارج مصر على العكس تجده يعمل كثيرا ولكنه قليل أو نادر الشكوى..

هل لأن المجتمع فى هذه الدول قد حقق تقدما أصبح يسعد المصرى أن يعيش فيه؟

ولكن هذا التقدم ممكن أن نحققه أيضا فى مصر لو أن كل شاب اضاف إلى عمله جهدا أكثر من الذى يبذله..

هل لأن مشاكل الشاب المصرى فى الخارج قليلة.. ومشاكله فى الداخل كثيرة؟

ولكن معظم مشاكل الشباب المصرى من الفراغ... وهى ملاحظة أرجو أن تتأملها.. فالذى يعمل معظم وقته مشاكله أقل كثيرا من الذى لا يعمل إلا بعض الوقت، ولهذا أصبح معروفا عند أصحاب الأعمال والمديرين المسئولين أن كل الذين يثيرون القلاقل هم الذين لا يعملون، وأن كل أصحاب الاحتجاجات والمظالم والشكاوى هم أقل العمال عملا.. لأن الذى يعمل لا وقت عنده للشكوى.. صحيح أنه يحس بالجهد الكبير فى عمله ولكنه سعيد به.. يخيل إليه أنه لو توقف عن أداء هذا العمل فإن الكون نفسه سوف يتوقف.. وليس

هذا صحيحا، ولكنه بلوغ النقطة التى حدثتك عنها والتى حولت الشاب أو الإنسان من مجرد عامل إلى عاشق.. يعشق عمله.. يعشق عرقه.. يعشق جهده..

وكل الدول التى تقدمت لم تحقق تقدما بالعمل ولكن بالعشق.. كل الذين عشقوا بلادهم هم الذين دفعوها دفعا إلى قمة التقدم: الأمريكيون.. اليابانيون.. الألمان.. الإنجليز.. وغيرهم وغيرهم.. كلهم كانوا يعشقون عملهم... وقبلهم جميعا كان المصرى القديم الذى استطاع بحبه وعشقه لعمله أن يفعل المعجزات فى زمان لم تكن فيه أية وسيلة من وسائل التكنولوجيا التى تساعد أجيال اليوم..

إن كنا فى حاجة إلى شىء اليوم فى مصر فإنما إلى شباب يتجاوز خط الشكوى والمظالم والفراغ.. ويبلغ نقطة الاندماج والتفانى فى عمله..

إن كنا نريد شيئا لمصر اليوم من شبابنا فليس أكثر من أن نرى جهد هذا الشباب وعمل هذا الشباب داخل مصر بمثل ما يقدمونه فى الخارج..

عزيزى شريف:

إنها مسئولية.. ولعلك تكون أحد القادرين على تحملها لكى تستطيع أن تترك لأولادك من بعدك بلدا متقدما يفخرون به.

لك تحياتى وإلى رسالة قادمة أرجو لك كل نجاح.



رسالة إلى أى شاب

عزيزى شريف:

وصلت إلىّ رسالتك الأخيرة، وقد أعجبتنى بعض أفكارك فيها، ولا أستطيع أن أؤيدك فى بعضها الآخر..

إننى أعجبت باكتشافك متعة القراءة، وتشبيهك لها بأنها أشبه بباب سحرى إلى عالم كلما أحسست أنك اقتربت من نهايته، اكتشفت أنك ما زلت فى أوله.. وهذا صحيح.. بل إن هذا أول شروط المعرفة.. أن تعرف أنك لا تعرف.. أو أن تعرف أن ما يجب أن تعرفه كثير، وأنك كلما ازددت معرفة ازددت اقتناعا بأنك لا تعرف..

وقد ذهبت كما ذكرت لى إلى معرض الكتاب منتهزا فرصة تجمع أكبر عدد من الكتب، وليست شكواك من ارتفاع الأسعار بجديدة، كما أننى لا أعارضك فيها، لكننى فى الوقت نفسه أعذر دور النشر بسبب معرفتى بارتفاع كل مكونات الكتاب من ورق وأحبار وطباعة وتشغيل، ومثل هذا الارتفاع لم يحدث فى مصر وحدها، بل حدث أكثر منه فى الدول الأوربية والأمريكية رغم أنها لا تعتمد مثلنا على استيراد الورق، بل تنتجه محليا.. وأنا أعذر جيلك كله فى عدم قدرته على شراء الكتب الكثيرة التى كنا نشتريها فى زماننا بأسعار تعتبر «ببلاش» بالمقارنة إلى أسعار هذه الأيام، والمشكلة أن الدولة تعامل دور النشر حتى ما كان تابعا منها للقطاع العام معاملة المؤسسات التجارية التى يجب أن تحقق ربحا، وكان الواجب أن تعاملها الدولة معاملة رغيف العيش، فإذا كانت الدولة تدعم

خبز البطون، وتتكلف الملايين حتى يصل إلى المواطن بسعر معقول، فإنها يجب أن تدعم أيضا الكتاب وهو خبز العقول، حتى يصل إلى القارئ بسعر يستطيعه. ولكن الدولة عند الخيار تفضل خبز البطون لأنه يدخل ملايين البطون، على خبز العقول الذى يقتصر التعامل فيه على عدد محدود من الزبائن!

لقد ابتعدت على كل حال عن قضيتنا الأصلية وهى مضمون خطابك، وإشارتك إلى عالم الكتب على أساس أنه عالم حى من الصداقات والأفراد الذين تستطيع أن تأمن إليهم، وأن تعيش العمر كله معهم منفصلا عن الحياة، معتكفا فى مكتبك متفرغا للقراءة.. وأنت تقول لى فى خطابك إنك فهمت لأول مرة معنى التصوف وارتباطه بالتجرد والزهد فى كثير من متع الحياة، خصوصا - كما تقول - إن أصدقاء الشر أصبحوا كثيرين، وأصبح من الصعب على شاب مثلك أن يميز بين صديق الخير وصديق الشر.. أو بين ما هو خير وشر.. وما هو صح أو خطأ، وما هو يفيدك أو يضرك.. فالأمور مختلطة، ورائحة الشر والفساد والانحراف هى الرائحة الرائجة والمنتشرة، وعندما يعجز الإنسان عن مواجهة هذا الوحش الضارى فالأفضل أن يعتزل وأن ينكفئ على كتابه يختاره صديقا مخلصا وفيا فاهما لأهدافه وحدوده..

وما تقوله أستطيع أن أفهم بواعثه الطيبة، ولكننى لا أستطيع أبدا أن أقرك عليه.. فماذا لو أن كل واحد انسحب من هذه الحياة واعتزلها، وخشى على نفسه من فتنة السوء وأهل الفساد.. إن هذا فى الواقع ليس تصوفًا ولا إعتكافًا، بل الأصح أن نسميه هروبا وتخاذلا عن مواجهة الواقع، وعدم قدرة على تغييره إن كان يحتاج إلى تغيير.

وإذا كان الرسول - كما لابد أن تعلم - قد رفض فكرة الاعتكاف لمجرد قراءة القرآن والتعبد، وقال قولته الشهيرة عندما رأى شخصا ينفق كل وقته فى المسجد «أخوه أعبد منه» وذلك عندما سأل عمن ينفق عليه فأجابوه بأن أخاه هو الذى يفعل ذلك.. لأنه إذا كان البعض يتصور أن العبادة هى الصلاة والصوم وقراءة القرآن فهو لا يعرف حقيقة الإسلام ويجهل أن هذا الإسلام ليس أسلوب عبادات فقط وإنما أيضا منهج متكامل للحياة، وأن جزءا أساسيا من

الحياة العمل والكفاح ومواجهة الوقائع.. فإذا كنت تتصور أنك باعتزالك الحياة وببعدك عنها واغلاقك الباب على مكتبك قد أحسنت صنعا، فإن الواجب يحتم أن أقول لك: بل أسأت صنعا.. وإذا كانت هناك قيمة لكل ما تقرأ وكل ما تتلو فهو أن تفيد به نفسك وتفيد به الآخرين، تماما كما يفعل نحل العسل عندما يسعى ويدور بين الأزهار يرتشف منها رحيقا، ثم يحول ذلك كله إلى إفراز شهى يفيد الإنسان.

فلا تنفصل عن الحياة، ولا تعتزلها.. فأنت ابن زمانك وابن جيلك.. ولو لم يرد الله أن تعيش فى زمانك الذى ولدت فيه لجاء بك فى زمان آخر.. إن هذه هى مشيئته هو وحده.. اختيار الزمان.. ولهذا فإن تفكيرك فى الهجرة من هذا الزمان إلى زمان سابق هو رفض لمشيئته.. والنجاح الحقيقى هو أن تعيش زمانك ملتزما بمنهج وأسلوب الله.. بادئا بنفسك كقدوة فيما تطلبه من الآخرين.. وعندما يتحقق لك ذلك فسوف تكتشف دون عناء طريق الخير من الشر، وصديق الهداية من صديق الضلال.. سوف تجد فى داخلك من يقودك ويرشدك ويدلك، وهو ما يذكرنى بخطاب قديم، ما زلت أذكر كلماته لأننى قرأته وأنا فى سن صغيرة جدا وهى السن التى تستطيع أن تحفظ عن ظهر قلب كل ما يلقى فيها من عبارات وجمل بسبب خلو صفحات الذاكرة.. ومن ثم القدرة على الاستيعاب.

هذا الخطاب أرسلته أم أرملة إلى ولدها، وكان تلميذا فى إحدى المدارس الثانوية، وقد اكتشفت بغريزة الأم الحيرة التى يمكن أن يواجهها ولدها بين الخير والشر وكيفية الخيار بينهما، فكتبت إليه هذا الخطاب الذى تقول فيه:

ابنى العزيز:

سوف تصبح رجلا فى يوم ما، وستجد نفسك يومئذ حائرا مترددا أمام إغراء إخوان السوء لك بارتكاب الإثم والمعصية، وتنكب الطريق المستقيم، مصورين لك الخطيئة فى صور براقة زاهية.. ولمثل هذه اللحظة التى يتملكك فيها الشك، وتتعرض رجولتك لأقسى امتحان، أكتب إليك رسالتى هذه لأوصيك بما أرجو أن يخرجك من ذلك المأزق، ويجعلك تجتاز الامتحان بنجاح. إن عوامل الإغراء والتضليل فى تلك اللحظة ستكون من القوة بحيث تملأ خيالاتها عينيك، وتدوى

أصواتها فى أذنيك، وتأخذ على شعورك كل سبيل. ولكنك من خلال تلك الظلمات المتراكمة ستلمح بصيصا من النور، وستسمع فى أعماقك صوتا ضئيلا خافتا يهمس لك بأن تتبع ذلك البصيص ليدلك على طريق الهداية والنجاة. فوصيتى لك يا بنى أن تصغى لهذا الصوت، وأن تجاهد نفسك لكى تفعل ما يشير به عليك. فما هو إلا صوت الحق، أو هو صوت الله.

إن شياطين الغواية سوف تتفانى فى سبيل تضليلك، وسوف توهمك بأنك إن التزمت جانب الخير فسينفر منك الناس وتعيش وحيدا فى الحياة، ولكن ثق أنك لن تكون وحيدا. إن الله سيكون معك، فهو جل شأنه صديق الأخيار.. ومادام الله فى جانبك أثناء نضالك فثق أن النصر لك فى النهاية ولو كان العالم كله ضدك.

* * *

هذه هى الرسالة التى بعثت بها أم إلى ابنها.. وهى رسالة قديمة جدا.. ولكن معانيها ستبقى مدى الحياة.. إن النفس الشريرة أمارة دائما بالسوء، والنفس الخيّرة أمارة دائما بالخير.. فلكى تعرف الفرق بين الخطأ والصواب، بين النور والظلام، بين الهدى والضلال، فكن أولا نفسا خيّرة.. وبهذه النفس الخيّرة تستطيع أن تواجه الحياة، وتعرف كيف تنجو من مخاطرها.. لأن هذه النفس الخيّرة سوف تكون أشبه بالبوصلة التى يشير مؤشرها إلى اتجاه محدد مهما تغير موقعها..

عزيزى شريف:

لك أمنياتى ودعواتى، وإلى أن نلتقى فى رسالة قادمة أرجو أن تستمتع بما تقرؤه، وبما تراه.. فى مكتبك وخارج مكتبك.. فى البيت وفى الشارع..



قبل أن تضيع الفرصة
وتصبح معزولا عن كل العالم

عزيزى شريف:

إننى أرجو وأتمنى ألا يكون قد فاتك تعلم لغة الكومبيوتر، فإن كان هذا حدث – وهو ما لا أرجوه – فالفرصة أمامك ما زالت تنتظر، اليوم قبل الغد.. فكلما كانت سنك صغيرة كانت فرصتك أكبر.. وأنا شخصيا لم أعرف أهمية وقيمة الكومبيوتر وما سيحدثه فى كل العالم إلا عندما حضرت فى الشهر الماضى معرضا اشتركت فيه مجموعة الشركات الموجودة فى مصر، التى تتعامل مع أجهزة الكومبيوتر، وهى كلها شركات وكيلة لشركات أجنبية، ورغم الغرائب التى قدمتها فى هذا المعرض فقد عرفت أن هذا المعروض لا يمثل آخر الابتكارات والقفزات فى عالم الكمبيوتر، لأنه أصبح معروفا أن الشركات الكبيرة لا تعرض إنتاجها الجديد إلا بعد أن يكتمل لها إنتاج نوع أحدث!

ولقد كان تفكيرى إلى وقت قريب أن الكومبيوتر يقتصر تعامله على الأرقام، وكان أبسط نموذج له فى رأيى «الكالكيليتور» الذى أصبح معروفا لنا جميعا، والذى يقوم بسرعة بأعقد حسابات القسمة والضرب والجمع والطرح، وبعض هذه الأجهزة الحاسبة لها أيضا ذاكرة تساعد على القيام بأكثر من عملية فى وقت واحد.

ورغم أن هذا الجهاز – الحاسب الصغير – كان يعد عند ظهوره، ثورة كبيرة، وكان جهازا كبيرا ثم أخذ يصغر ويصغر حتى وصل إلى حجم عقلة

الأصبع، هذا الحاسب أصبح نقطة فى بحر من الغرائب والعجائب والأعمال التى استطاع الكومبيوتر تحقيقها.

إننا عندما نفكر فى وسائل الاتصال بين العالم نجد أنها تقوم على أربعة عناصر: الرقم، والحرف، والخط، والنقطة.

أما الرقم فهو أساس لغة الأعداد، وأما الحرف فهو أساس لغة الكتابة، وأما الخط فهو أساس أى رسم، وأما النقطة فهى أساس الصورة..

فمن الأرقام تكون الأعداد، ومن الحروف تكون السطور والصفحات المكتوبة، ومن مجموع الخطوط يكون مجموع الرسوم، أما من مجموع النقط بألوانها المتدرجة فتكون الصورة.

أليست هذه هى وسائل الاتصالات بين الناس فى أى مكان فى العالم؟

إن كل هذه الوسائل يتعامل بها الكومبيوتر اليوم، فهو يحسب بالأرقام، ويكتب بالحروف، ويرسم بالخطوط، ويصور بالنقط.

دعانى أحد الأصدقاء قبل أسابيع لزيارة مصنعه الجديد للملابس الجاهزة، أدهشنى أن منظر المصنع من الخارج لا يعكس الضخامة المعروفة لمصانع الغزل والملابس القديمة التقليدية، واكتشفت أن التطور الذى أحدثه الكومبيوتر قد غير كل المفاهيم التى كنا نعرفها.. فالأنوال العديدة التى كانت توضع على شكل صف طويل تم اختصارها فى مكنة واحدة صغيرة، وعن طريق جهاز كومبيوتر بالمكنة يقوم الجهاز بإعطاء الأوامر لهذه المكنة لتشكيل الخيوط بألوانها المتعددة وإخراجها بحسب الرسم الموضوع فى برنامج الكومبيوتر.. وأصبح من الممكن إذا أراد مهندس المصنع تغيير أى لون أو استبداله، أن يعطى مجرد أمر إلى جهاز الكومبيوتر الذى يعطى بدوره الأمر إلى المكنة فيتم التغيير.. لكن الأغرب هو تصميم رسوم الأقمشة بواسطة الكومبيوتر، واستبدال وتغيير عشرات الألوان فى ثوان على شاشة الاستقبال، للوصول إلى الرسم والألوان التى يراها المصمم أفضل الأذواق، فيطبعها على شريط صغير كاسيت ثم يدخلها الكومبيوتر الذى يتولى إعطاء الأوامر لمكنة التشغيل.

سرعة، ودقة، وإنتاج متعدد، وكل هذا بمجرد مهندس مصمم وعامل فنى يراقب المكنة الصغيرة..

ولكن هل هذا فقط هو الكومبيوتر؟

قبل أيام حضرت مناورة بالذخيرة الحية لقواتنا المسلحة فى منطقة المضايق فى عمق سيناء.. كانت هناك أهداف محددة أصابتها طلقات المدفعية بإتقان بالغ.. لكن الغريب أن المدافع التى كانت تصيب هذه الأهداف كانت موجودة على مسافة أكثر من عشرين كيلو مترا.. مسافة لا يستطيع الواقف على المدفع بالطبع أن يرى من ورائها الهدف، ولكنه بالعقل يراه عن طريق أجهزة الكومبيوتر التى تتولى حساب وسرعة الطلقة!

ونفس الشىء بالنسبة لصواريخ الطائرة، والتى يطلقها الطيار من مسافات بعيدة..

وعندك نموذج الصواريخ التى تتبادل إيران والعراق إطلاقها فى الأيام الأخيرة لحربهما على المدن.. فهذه الصواريخ تـطلق من مسافـة مئات الكيلومـترات. ولكن أجهزة الكومبيوتر تحسب مواقع أهدافها قبل الإطلاق، وتظل تراقبها وهى منطلقة متجهة إلى الهدف، بحيث إذا حدث وتبين أنها سوف تصيب هدفا غير مطلوب يمكن تفجيرها فى الجو قبل وصولها إلى هدفها.. وهناك أنواع أخرى من الصواريخ يمكن تغيير مسارها فى الجو وإعطاؤها الأوامر بالاتجاه إلى هدف آخر..

هذا التطور المذهل الذى ألغى البطولة والفروسية من الحروب، وجعلها تعتمد على الأجهزة والحاسبات الإلكترونية، لم يتحقق إلا بعد ظهور الكومبيوتر والتطور المذهل الذى مر به.

ولكن ما هو الكومبيوتر؟ ومتى بدأ ظهوره؟ وكيف تطور؟

إن فكرة الكومبيوتر بدأت فى الواقع بمحاولة توصل الإنسان إلى وسيلة تساعده على العد والحساب.. وعبر تطورات كثيرة كان أول كومبيوتر يعمل بالكهرباء هو ذلك الذى نجحت فى صناعته كلية الهندسة بجامعة بنسلفانيا فى

أمريكا، وقد صنعته لحساب الجيش الأمريكى بصورة سرية بالغة أثناء الحرب العالمية الثانية. وكان هذا الكومبيوتر مكونا من ١٨ ألف صمام كهربائى كان كل صمام منها فى حجم اللمبة الكهربائية.

أما قدرة هذا الكومبيوتر فكانت القيام بـ ٣٠٠ عملية فى الثانية الواحدة، وكان يحتل حجرة مساحتها تزيد على ١٥٠ مترا مربعا!

كان هذا هو أضخم عمل قد توصل إليه الإنسان قبل نحو ٤٠ سنة. أما اليوم فإن أضخم كومبيوتر يقوم بعمل ٢٥٠ مليون عملية حسابية فى الثانية الواحدة.. تصور!

إن الوقت كما تعرف يتم حسابه بالساعة والدقيقة، وفى البطولات الأوليمبية فإن الزمن يقاس بالدقيقة والثانية، ولكن بالنسبة للكومبيوتر فإن الثانية الواحدة يتم تقسيمها إلى ثلاثة أجزاء: المللى ثانية وتعادل واحدا على ألف من الثانية، والميكروثانية، وتعادل واحدا على المليون من الثانية، ثم النانو ثانية، وتعادل واحدا على ألف مليون من الثانية!

وكما يقول أحد الكتب فى الكومبيوتر.. فإنه لكى نتصور هذه السرعة فإن السيارة التى تسير بسرعة ٦٠ كيلومترا فى الساعة وتقطع المسافة بين القاهرة والإسكندرية فى حوالى أربع ساعات فإنها تسير أقل من ٢ سنتيمتر فى كل مللى ثانية، ومركبة الفضاء التى تسير بسرعة ١٥ ألف كيلو متر فى الساعة تسير فى الثانية الواحدة مسافة ٤٢ كيلو مترا أو ما يقارب ٤ سنتيمترات فى الميكروثانية!

وقد لخص أحد الباحثين تطور سرعة الكومبيوتر على الوجه التالى:

فى سنة ١٩٥٠ كان الكومبيوتر يعمل بسرعة ألف ميكروثانية، وفى سنة ١٩٦٠ وصلت سرعته إلى ٥ ميكروثانية، وفى سنة ١٩٧٠ أصبحت السرعة ٨٠ نانو ثانية وفى سنة ١٩٧٥ قفزت إلى ٢٥ نانو ثانية، وفى سنة ١٩٨٠ أصبحت السرعة ٥ نانو ثانية!!

وحتى تعرف معلومات بسيطة عن الكومبيوتر يكفى أن أقول لك إن هذا

الكومبيوتر عبارة عن ذاكرة يستطيع أن يحتفظ فيها بخطوات حل أى مسألة مهما كان عددها.. ولكى يعمل الكومبيوتر يجب أن يكون له برنامج وبيانات، أما البرنامج فهو عبارة عن مجموعة من الخطوات أو الأوامر التى تحدد للكومبيوتر ما يجب أن يفعله لحل المشكلة أو المسألة، أما البيانات فهى مجموعة الأرقام والحروف المطلوبة لحل المشكلة أو المسألة.

وذاكرة الكومبيوتر عبارة عن آلاف المخازن الصغيرة التى يتم إدخال البيانات والمعلومات إليها.. وتقاس سعة الكومبيوتر بعدد الألوف أو الملايين الموجودة فيه من هذه المخازن.. التى يمكن أن يوضع فى كل مخزن منها رقم أو حرف، حيث يتحول هذا الرقم أو الحرف بعد ذلك إلى كود أو شفرة.. يتفهمه الكومبيوتر.

وبفضل التطور الذى دخل على وسائل إدخال المعلومات إلى ذاكرة الكومبيوتر، أصبح من الممكن تخزين ملايين الحروف فى شريط كاسيت صغير أو أسطوانة صغيرة.

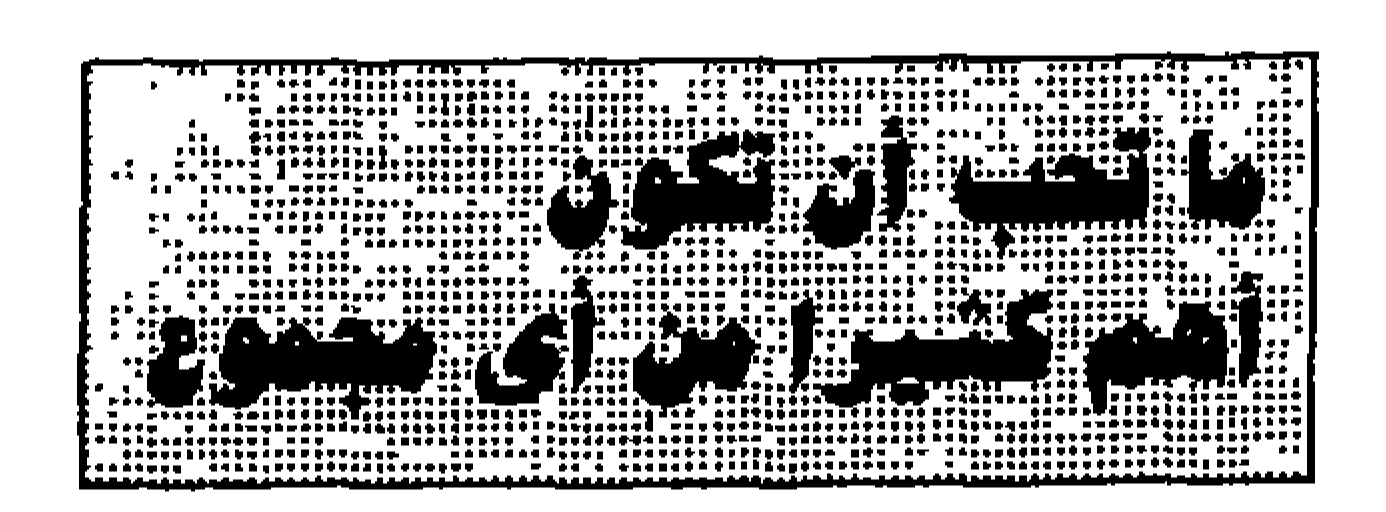
لست أحاول هنا بالطبع أن أعلمك الكومبيوتر؛ فأنا لست متخصصا فى ذلك، وكل معلوماتى استقيها من قراءات بدأت تشدنى بعد أن عرفت حجم التطور الذى أصاب هذه الأجهزة. واكتشفت أكثر أنه إذا كانت محاولات الكثيرين لإيجاد لغة واحدة يتحدث بها العالم ومنها لغة الاسبرانتو التى اخترعها ل. زانهوف وتحمس لها الكثيرون وعقدوا من أجلها المؤتمرات والحملات ونشروا بها عدة مطبوعات، فإنها لم تستطع أن تحقق أمل مخترعها فى أن تصبح حديث العالم.

الكومبيوتر وحده هو هذه اللغة التى يتحدث بها العالم والتى سيتعامل بها العالم، وستصبح فى خلال سنوات محدودة، وسيلة تفاهمه فى الاجتماعات والمؤتمرات والبيوت والمحال والمكاتب.. سوف يحضر الوزراء اجتماعات مجلس الوزراء فى المستقبل القريب ومع كل منهم حقيبة صغيرة بداخلها كومبيوتر يضم كل الوثائق الخاصة بمعلومات وزارته.. سوف تقوم ربة البيت بالاتصال بالبقال والفكهانى والصيدلى عن طريق الكومبيوتر.. إنها لن تكون ثورة وإنما لغة.. يتحدثها الملايين ويتعاملون بها.. ومن يفته قطار تعلمها فسوف يجد نفسه معزولا

عن هذا العالم.. فحاول يا ولدى ألا تعزل نفسك مستقبلا، وانتهز الفرصة بسرعة قبل أن يفوتك الوقت وتكبر وتجد نفسك وسط عالم يتحدث لغة لا تعرفها ولا تفهمها.

ولك أمنياتـى.





عزيزى شريف:

هل تذكر نادية جارتكم القديمة التى كنت تجلس مبهورا عندما تزوركم وهى تتحدث عن قراءاتها الأدبية، وإعجابك الكبير بأسلوبها عندما طلبت إليها أن تكتب إليك موضوع إنشاء، وقد طلب إليك المدرس أن تقرأه بصوت عال كنموذج من نماذج الأدب الجميل الذى تخيل أنك تكتب به... وقد اضطررت يومها للاعتراف لمدرسك أن هذا الأسلوب ليس أسلوبك، فحياك على صراحتك، وقال لك إنه كان واثقا من ذلك لأنه لا يمكن أن تكون فى أيام محدودة قد قفزت هذه القفزة الواسعة التى جعلتك من أصحاب المشاعر الحساسة التى يملكها أصحاب المواهب الأدبية، وهى مواهب لا تظهر فجأة، وإنما تبدو علاماتها صغيرة متواضعة ثم تأخذ فى النمو؟

ولعلك تذكر أن مدرسك أبلغك أن الذى كتب إليك هذا الموضوع سوف يكون له مستقبل باهر فى مجال الأدب والكتابة..

ربما نسيت كل ذلك خصوصا بعد أن انتقلت إلى سكن جديد ولم تعد ترى أو تسمع عن جارتك القديمة نادية.. وأنا شخصيا كنت قد نسيت هذه الحكاية لولا أننى تلقيت خطابا أخيرا من نادية أعادنى إلى هذه الحكاية القديمة.. خطاب أعيد كتابته إليك بكل كلماته، لا لأحرك ذكريات قديمة وإنما لتشاركنى التفكير فيما يثيره من قضية.

تقول الرسالة:

سيدى الفاضل.. من السهل أن أكتب لك.. من الصعب أن تقرأ لى.. من المستحيل أن تنشر ما أكتبه، لكنى مع ذلك مصممة على أن أقول لك ما بقلبى المعذب. وما بعقلى المرهق. وما بجسدى المكدود. أعرف أن هموم بلدى كثيرة، ولكن قد يفوق هم فرد واحد هم أمة كاملة. وهذا هو شعورى الآن وأنا أكتب إليك بعد تناولى نوعين من الأقراص المهدئة التى وصفها لى أحد أساتذتى بكلية الطب، كما أننى كذلك آخذ حقنا للتهدئة النفسية، إذ أن أستاذى شخص حالتى بأنها: إرهاق ذهنى. اكتئاب .. شعور بالإحباط العملى والعلمى.. سألنى الأستاذ: أين تعملين يا دكتورة؟ أجبت ودموعى تغمر وجهى: فى ريف مصر السحيق. سألنى بم تشعرين وأنت طبيبة بالريف؟ أجبت كأننى أطلق بركانا محبوسا فى صدرى: بالإحباط.. بالقهر.. بضياع الأمل والهدف! تسألنى كيف تخيل نفسك حاصلا على ٩٥,٥٪ فى الثانوية العامة مثلى، ثم فوجئت بأعجب المناهج وأشقها فى السنوات الأولى بكلية الطب. أذكر أنه كان مطلوبا فى أول عام لنا فى دراسة الطب - وهى السنة الإعدادية - تشريح «الصرصار». وأذكر أننى خفت من هذا «الصرصار»، وأصبت بالاشمئزاز والقرف والغثيان بل الاكتئاب. ثم قررت ألا أشرح هذا «الصرصار» ولو كانت النتيجة رسوبا فى الامتحان العملى. وجاء وقت الامتحان، وسمعت رئيس اللجنة يطلب من عامل المعمل إحضار الصراصير لنشرحها فى الامتحان. ولكن العامل ذهب وجاء خاوى اليدين ليقول لرئيس اللجنة: يابيه.. الطلبة عددهم أكثر من عدد الصراصير!! كانت جملة قالها العامل عفويا، لكنها كانت تعنى رصاصا موجها لنظام التعليم الطبى فى مصر، حيث الاهتمام بالكم لا بالكيف. حيث علمونا ونحن ألوف نملأ المدرجات، فلا نرى وجه الأستاذ أحيانا، ولا وجه المريض فى أغلب الأحيان. كيف لا يصرخ عاقل فى مصر بوقف هذا الجنون العجيب فى قبول هذا العدد الرهيب من الطلاب؟ والنتيجة شعور خريج الطب بالعجز والإحباط والفشل، خصوصا إذا كان الكفاح لا يؤتى ثماره. ذلك أن والدى المكافح لم يستطع مساعدتى أثناء دراستى للطب بدروس خصوصية بألوف الجنيهات، فحصلت على البكالوريوس

بتقدير جيد ومجموع متواضع.. لكنى حصلت فى «الأطفال» على جيد جدا.. لكن الوزارة الموقرة تعاقبنى، فتحرمنى وتحرم الألوف من التخصص المحبب بحجة المجموع المتواضع وتلقى بى فى الريف... كم سنة؟ لا أعرف.. ولكن هذا يهون إلى جانب ما عرفته.. وما قاسيته.. فالطبيب فى مصر مرتبه بعد التخرج مباشرة ٥٠ جنيها. وبعد التخرج بعام ٦٤ جنيها، ثم بعد الإعداد للتخصص يرتفع إلى ٦٥ جنيها، لكن يخصم من مرتبه السابق ١٥ جنيها «بدل العيادة» أى يعود المرتب للأخصائى لحوالى ٥٠ جنيها، لأن الوزارة مؤمنة أن الطبيب ما دام فتح عيادة فإن الله «سيفتح عليه» بألوف الجنيهات. وقد عرفت ضمن ما عرفت أن الطب تجارة وشطارة مثل كل أنواع التجارة السائدة الآن.. عرفت أنه مطلوب منى أسلوب بهلوانى لإقناع الناس بعبقريتى فى شفاء الأمراض. عرفت أن النجاح فى «سوق الطب» لا يحتاج إلى خلفية علمية أو عملية بقدر ما يحتاج إلى إرادة كسب المال. ومن سوء حظى أننى فشلت فى تكوين هذه الإرادة لأجمع بها المال الذى أريده من صحة الناس وآلامهم. والنتيجة أننى لا أستطيع شراء ثوب لائق من مرتبى.. وأجد صعوبة بالغة فى شراء مرجع أو كتاب من هذا المرتب المخجل (٦٥ جنيها). لم تتح لى فرصة العمل بعيادة لأسباب عديدة. لا أملك المال أصلا لفتح عيادة. كل شىء أمامى مجهول ومظلم. المستقبل العلمى والعملى. أشعر باليأس القاتل. حتى الزواج لم يعد فى نظرى موضوعا ذا أهمية. وأنا فى السابعة والعشرين من عمرى. كل شعورى الآن أنه «لا شىء يهم» على رأى الكاتب الأستاذ إحسان عبد القدوس.. كل شهر نتلقى صفة الـ ٦٥ جنيها والمطالبة بالإنسانية والرحمة والعطاء... أنا وغيرى وكل طبيب شاب، وأرجو أن تضع «فتحة» على حرف الباء لكى تعرف كم يتحول الشعور بالشباب إلى شيب.. عندما يقتل فينا الأمل.. وعندما يتحول مشوار الاستذكار للدراسات العليا إلى عذاب مرير.. فأساتذة الجامعة الأطباء يعاملوننا نحن أطباء وزارة الصحة بالاحتقار والجهل وتأكيد رسوب طبيب الماجستير التابع لوزارة الصحة مرة واثنتين وثلاثا.. بل إن بعض الأساتذة لا يرحم طبيبة لديها أبناء بل يعذبونها بتكرار الرسوب وبالتحقير المستمر للمستوى العلمى، مع العلم بأن طبيب الجامعة يلقى كل ما يرجوه من المستوى العلمى لاتصاله بالأساتذة، ومع هذا

فقد يفوقه طبيب آخر فى وزارة الصحة.. ولكن هذا الأخير مكتوب عليه دائما ألا يلقى تشجيع السادة والأساتذة فى كليات الطب، بل يرسب مرات عديدة ظلما وتعسفا.. إن المرارة بلا حدود... فكيف يطالبوننى بتخفيف آلام المرضى؟ إننى أفكر مثلا فى ترك مهنة الطب رغم حبى لها.. ولست أدرى ما الذى أصلح له بعد كل هذا؟ فأنا أحس أنه فى أعماقى قتلت كل المعانى الجميلة الحلوة المتفائلة.. وكاد يقتل حبى للشعر والأدب والخيال.. فهل لديك ما يعيننى على عنائى فى مهنة الطب؟

ابنتك الطبيبة الحزينة

وأعتذر مرة أخرى لكونى أكبر سنا بكثير من عمر أبنائك، وكونك أصغر بكثير من عمر أبى.

انتهت الرسالة... فماذا فهمت منها؟

إن الذى فهمته شخصيا أن سر عنائها هو هذا المجموع المرتفع الذى حصلت عليه، الـ ٩٥,٥ فى المائة والذى استخسرت عدم استثماره فى الكلية التى تقطف أعلى مجموع.. كان فى داخلها موهبة الأدب والشعر والكتابة، ولكنها بسبب المجموع تركت حبها الحقيقى وجرت وراء المجموع. ومن المؤكد أنها جرت وراء الأصوات العالية التى سمعتها من أفراد الأسرة؛ إذ كيف تضيع هذه الفرصة الثمينة؟ ومنذ متى يترك طالب فرصة هذا المجموع ولا يدخل كلية الطب إلا إذا كان فعلا مجنونا؟

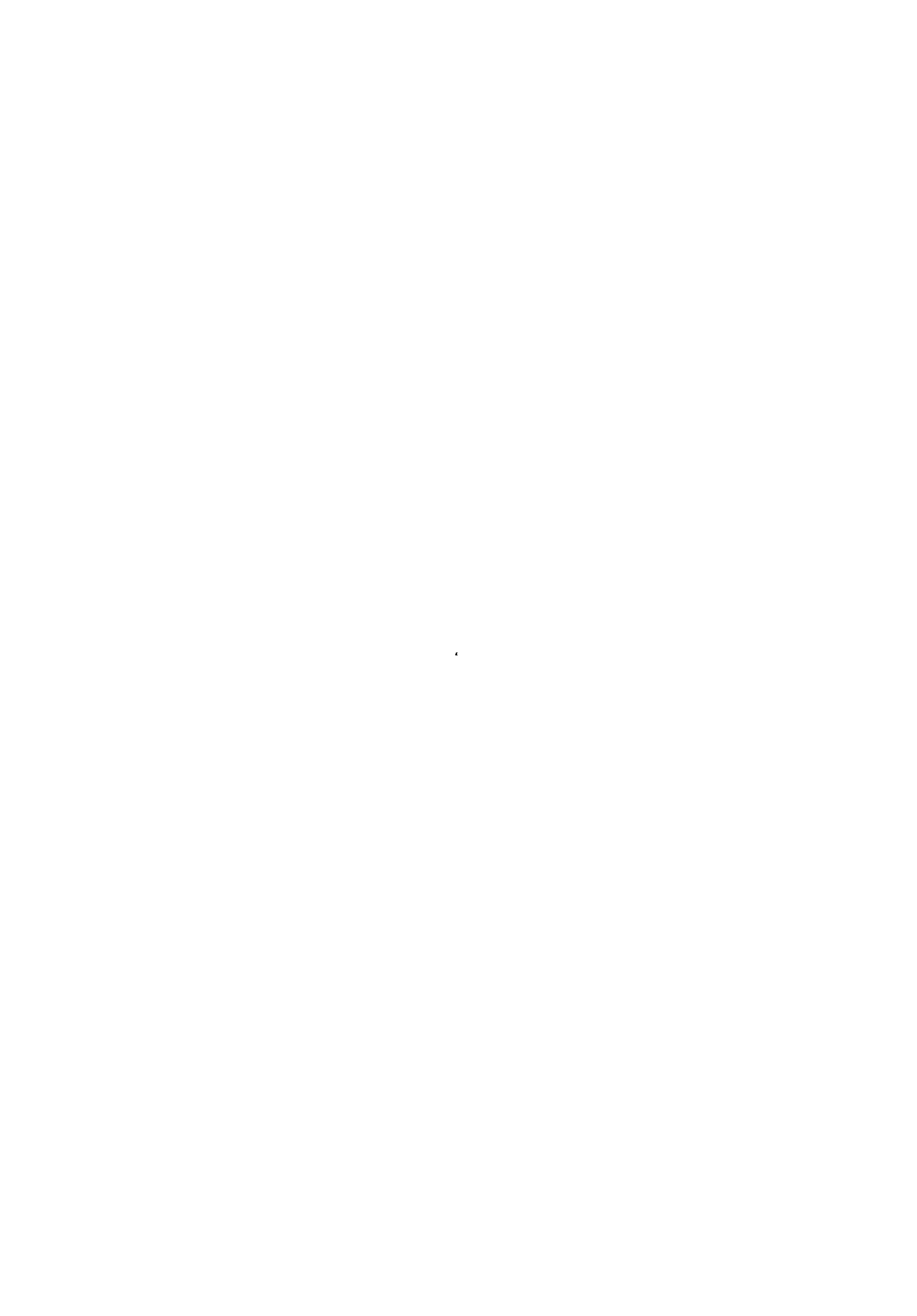
إن الجنون بعينه هو ما يفعله كثير من الأبناء والطلبة.. هم بالطبيعة طلبة يجيدون التحصيل، ويجيدون الحصول على مجموع عال، ولكن فى داخلهم مواهب أخرى مختلفة عن الطريق الذى يؤدى إليه هذا المجموع العالى.. ولعلك لا تعرف أن أكبر نسبة رسوب هى التى تحدث فى السنوات الأولى بكليات الطب والهندسة، رغم أن جميع الطلبة الذين يدخلون هذه الكليات من أصحاب المجاميع الخيالية.. ورغم ذلك فإن نسبة الرسوب بينهم كبيرة جدا.. ولو فتشت فى داخل كثيرين منهم لوجدت أنهم فى داخلهم لم يحبوا دراسة الطب أو الهندسة،

وأنهم حتى بعد تخرجهم أطباء أو مهندسين لم يشعروا بالرضا عن أنفسهم.. وعندما واجهتهم المتاعب على طريق الحياة العملية التى تخرجوا إليها أحسوا أن هذه المتاعب أشواك أو سكاكين يسيرون فوقها.. وهم معذورون.. لأن الذى لا يعرفه كل الشباب أن كل نجاح بدأ صاحبه من تحت... وكل قمة صعدها المتسلق من السفح.. وكل طريق كفاح ناضل فيه أصحابه بالعذاب والألم والجوع أحيانا.. لكن الحب الذى كانوا يحسون به للعمل الذى يمارسونه جعلهم يتحملون كل ما واجهوه، ويشعرون لسندوتش الفول طعما أجمل من سندوتش الديك الرومى، ولزنقة الأوتوبيس راحة أعظم من ركوب المرسيدس.. ولو أن جارتك القديمة نادية أو الدكتورة نادية حاليا كانت قد أغمضت عينيها عن المجموع العالى الذى حصلت عليه، واتجهت إلى الطريق الذى يحقق موهبتها وتحس به داخلها، لا أقول لك أنها كانت ستتخرج كاتبة لامعة أو شاعرة مرموقة، ولكنها كانت ستواجه متاعب شاقة فى طريقها، وكانت ستستمتع كثيرا بكل ما كانت ستواجهه من عذاب وآلام وتعب.. لأنها تعرف أنها تمضى وتسير فى طريق حبها.. ولكن ها هى الطبيبة المحسودة.. لا هى نعمت بجائزة المجموع العالى الذى حصلت عليه عندما دخلت الطب، ولا بالموهبة الأدبية التى كانت فى داخلها.

عزيزى شريف:

أرجو أن يكون أهم درس تتعلمه: أن حبك الذى فى داخلك أهم من أى مجموع.. مع أمنياتى لك بالتوفيق فى تحقيق ذاتك وآمالك.





يضربك أبوك هذا أمر مقبول
يضربك أى شخص آخر هذا مرفوض.. لماذا؟

عزيزى شريف:

عندما كنت فى سنك أذكر كم كانت فرحتنا كبيرة أنا وزملائى فى ذلك الوقت بشهوة الجدل، بعد أن اكتشفنا فجأة أن لنا عقولا تفكر، وألسنة تتكلم، وأيدٍ تستطيع أن تضم قبضتها وتطرق بقوة فوق الموائد الموضوعة أمامنا ونحن نتحدث بكل الحماسة والكبرياء عن أفكارنا وآرائنا..

ولم أعرف إلا متأخرا حكمة «المناظرات» التى كانت تقيمها المدارس فى ذلك الوقت، ثم «جمعية الخطابة» فى الجامعات، وكانت تدعو لها التلاميذ والطلاب لكى يسمعوا مناظرات تجرى حول موضوعات كان من أشهرها: أيهما أقوى تأثيرا؟ الكتابة أم الخطابة؟ ومن الذى يقود الوطن؟ قوة الشباب أم حكمة الشيوخ؟ وهل وجدت المرأة للعمل أو للبيت، وماذا تفضل؟ العمل فى الحكومة أم فى التجارة؟

موضوعات كما ترى جدلية، وكانت الأجيال تتوارثها جيلا بعد جيل، ولو كتب لجيل هذه الأيام من التلاميذ فى المدارس والطلبة فى الجامعات أن يستمر على نفس منوال الذين سبقوه، لكانت هذه الموضوعات على أرجح الاحتمالات من بين الموضوعات المطروحة حتى اليوم إلى جانب بعض الموضوعات الأخرى التى تستلهم روحها ومفاهيمها من العصر..

وأذكر أننا فى جميع الموضوعات التى طرحناها للمناظرة فى ذلك الوقت كنا مقتنعين بالرأى وضده.. نصفق لمن يقول إن المرأة وظيفتها فى داخل البيت حيث

الأبناء والمملكة الخاصة التى تعيش فيها ملكة، ونصفق أيضا لصاحب الرأى الذى يقول إن مهمة الإنسان - ذكرا أو أنثى - هى العمل، وأن عصر الحريم والاختباء خلف شيش النوافذ قد انتهى، وأصبح من مسئولية المرأة بل من واجبها أن تشارك الرجل مهمة إقامة البيت المشترك وتدبير نفقاته واحتياجاته..

صحيح أننا كنا نتحمس لأحد الرأيين، ولكننا أمام قوة وأسانيد الرأى الآخر لم نكن نستطيع إخفاء إعجابنا.. وهكذا فإننا انتهينا من سنوات الدراسة ومازالت هذه الموضوعات تحتمل أحد الرأيين.. فما معنى هذا؟

معناه أن هناك قضايا خلافية وجدلية تتوارثها الأجيال ولا تستطيع أن تنتهى فيها إلى رأى.. ولكن حاجتنا بحكم سن الشباب إلى الجدل وإلى إثبات الذات كانت تجعلنا نتحمس لرأى ضد الآخر..

وفى مرحلة أخرى من الشباب كان إحساسنا أننا أصبحنا نعرف ما لم يسبق لغيرنا أن عرفه، وأننا بأفكارنا وآرائنا وقوتنا نستطيع أن نسخر من كل أفكار الأجيال التى سبقتنا والاستهزاء بها، فنحن القوة، والجيل الذى سبقنا هو مظهر من مظاهر الضعف، ونحن الأمل، والذين سبقونا لم يحققوا لنا غير الألم والمشاكل والمتاعب!

والشباب بطبيعته فورة وثورة وتمرد، وأول ما يحلو للشباب أن يستعرض فيه قوته الاختلاف فى الرأى.. والثورة على كل الأفكار التقليدية السائدة فى المجتمع، وتوجيه الطعنات لهذه الأفكار..

أنتم نيام وقد جئنا لنوقظكم..

أنتم غرقى ونحن الشباب الذين سننقذكم!

وكل عصر له أفكاره التى يستل لها الشباب سيوفه ويبارزها ويعلن معارضته لها.. وما أكثر القضايا والموضوعات التى اختلفنا عليها، ثم بعد أن كبرنا أصبحنا ننظر إلى هذه المرحلة التى مضت بالاشفاق والسخرية.. فما أعجب ما كنا نناقشه من أفكار، وما أكثر ما أقمناه لأنفسنا من أوهام عشنا فيها، وبددت السنوات ومسئوليات الحياة سحبها وطردتها طردا من تفكيرنا.

فهل فى هذا الإطار يمكن أن ننظر إلى الموضوعات الغريبة التى يحلو لشباب اليوم أن يفجرها قنابل للجدل والحوار؟!

غريب بالنسبة لى - ولكنه ليس غريبا للشباب - هذه القضايا المطروحة اليوم على ساحة الحوار بين الشباب، ومنها مثلا: قضية الغناء والتمثيل والموسيقى.. هل كل هذه الفنون حرام أو حلال؟ وتربية اللحية للرجل.. هل هى سنة أو واجب؟ وارتداء الجلباب أليس يمثل الزى الإسلامى الذى كان يرتديه الرسول والصحابة وكل المسلمين فى ذلك الوقت؟ والنقاب.. أليس أمرا مفروغا منه؟ وحديث الشاب إلى الفتاة متى يعتبر حراما؟ وما هى حدوده؟ والصلاة خلف العلماء المعينين فى الدولة هل هو جائز؟ ألا يتقاضى هؤلاء العلماء مرتبات من الدولة تجعلهم بحكم ذلك منتمين إلى السلطة ولا يجب طاعتهم لأنهم أصحاب مصلحة؟!

وهكذا.. قضايا غريبة كانت وستبقى وستظل موضوعات جدل وحوار وخلاف.. تماما مثل هذه القضايا التى كنا نثيرها قديما فى مناظرات المدرسة والجامعة ونصفق لكل رأى، ثم ينتهى الأمر بعد أن نكون قد أفرغنا شحنة الذخيرة التى يجد الشاب نفسه فى هذه السن اليافعة مشحونا بها..

ومن الممكن أن ننظر إلى هذه الموضوعات التى يثيرها بعض الشباب اليوم على أساس أنها قضايا مناظرات يمكن أن يتحدث فيها واحد أو أكثر برأى، ويقابله واحد أو أكثر بتأييد للرأى الآخر.. ثم ينتهى الأمر عند هذا الحد..

لكن ما أصبحنا نسمع عنه وتعرفه أنت يتجاوز كثيرا كل هذه الحدود.. فتلك القضايا لم يعد ينظر إليها ابتداء على أساس انها قضايا خلاف فى الرأى، وإنما هى قضايا انتهت فيها مجموعة معينة إلى رأى معين فى كل منها، وهذا الرأى هو الذى يسود ويجب أن ينفذ..

بل أخطر من ذلك أن هذه المجموعة وصل اقتناعها إلى حد تصور أن كل من يخالف رأيها يرتكب منكرا، وأنه بمقتضى الحديث الشريف يجب تغيير هذا المنكر بالقوة، لأن الرسول ﷺ قال: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وهذا أضعف الإيمان».

والحديث من وجهة نظرهم يضع لوسائل تغيير المنكر درجات تبدأ أولا باليد وهو ما يعنى القوة، ولما كان الشباب يعنى القوة فيكون إذن من واجب الشباب أن يستخدموا قوتهم فى تغيير هذا المنكر..

وهكذا سمعنا عن تعرض حفلة أقيمت فى إحدى جامعات الصعيد للاعتداء من جانب مجموعة تغيير المنكر، وسمعنا عن حوادث كثيرة جرت لشبان «ضبطوا» يتحدثون إلى زميلاتهم فى الجامعة!

عزيزى شريف:

إننى كما تعرف لست من هذا النوع الذى يهوى أن يحتل مكان الحكماء وإلقاء مواعظ النصح والإرشاد.. وإذا كنت أكتب إليك فإنما على طريق حوار الأجيال ومحاولة تزويدك بخبرات سبقتك فى دروب الحياة والسنوات..

وإذا كنت واثقا من شىء أستطيع أن أؤكده لك، فهو أن هؤلاء الشبان أنفسهم الذين يتصورون أن من حقهم بل من واجبهم تغيير المنكر بالقوة.. قوة أيديهم، وقوة عضلاتهم، وقوة ما يحملونه من أسلحة.. هؤلاء الشبان أنفسهم سوف يدهشون بل سوف يرتاعون كثيرا عندما تمتد بهم السنوات من هول هذه الأفكار التى كانوا يحملونها فى شبابهم ويدافعون عنها ويريدون فرضها فرضا على المجتمع!!

لك أن تتصور مثلا كيف يتحول أى مجتمع إذا استولت على القوة فيه جماعة من الجماعات وأعلنت إرادتها على هذا المجتمع.. من المؤكد أنه ستخرج لمواجهتهم جماعة أخرى.. وثالثة.. ورابعة.. بل يمكن أن يتحول كل فرد إلى مؤسسة خاصة يحصن نفسه ضد الآخرين أو يفرض فكره على الآخرين..

إن غش اللبن منكر، فماذا لو أن شخصا أمسك بمن يغش اللبن وضربه فى الطريق العام؟

إن مخالفة التسعيرة منكر.. فلماذا لا نسمح للطلبة بأن يهاجموا أى محل يخالف صاحبه التسعيرة ويحطمون له المحل؟

إن هناك من يؤكد أن التعامل مع البنوك التجارية حرام، فلماذا لا تقف

مجموعة من الشباب على أبواب هذه البنوك وتتصدى لمن يتعامل معها وتمنعهم بالقوة ؟

إن غش الموظف فى عمله، والعامل فيما يقوم به، منكر.. فلماذا لا يشكل الشباب كتيبة خاصة تتولى التصدى لهؤلاء الذين يخونون أمانة العمل؟!

لماذا فقط يقف المنكر عند حدود الجلباب واللحية والنقاب والموسيقى والغناء ؟

المنكر كمنكر لا تجوز تجزئته.. ومادام الشباب قد عين نفسه مسئولا عن جزء فإنه يرتكب منكرا آخر لأنه لا يتصدى بالقوة لكل هذه المنكرات الأخرى!!

إن عدم قيام الابن بأداء الصلاة منكر.. ومن حق أبيه أن يضربه على ذلك.. ولكن تصور شعور أى أب لو أن الذى تولى ضرب ابنه لأداء الصلاة شخص آخر.. هل يمكن أن يتحمل الأب ذلك؟ هل سمعت عن أب يقبل أن يضرب ابنه من الآخرين لأنهم يريدون تربيته ويريدون منعه عن المنكر؟ بل هل تقبل أنت شخصيا أن يضربك شخص غير والدك على أداء الصلاة أو الصيام؟

يضربك أبوك.. نعم هذا حقه.. ولكن يضربك أى شخص هذا غير مسموح به ولا تقبله.. فما الذى يعنيه هذا المثال البسيط؟

يعنى أن لاستخدام القوة حدودا وولاية.. وأنه إذا استخدمت القوة خارج حدود وولاية الشخص فإنها تنتج أضرارا تفسد حركة المجتمع واستقراره وسلامه.. الأب ولايته على ابنه وهو الذى يملك أن يضربه، أما الآخرون فحدود ولايتهم تجاه هذا الابن إذا رأوه يشرب الخمر أو لا يؤدى الصلاة.. حدودهم على هذا الابن هى النصيحة، أما إذا كانوا لا يعرفونه وليست بينهم وبينه علاقة فإن كل ما يفعلونه هو أن يأسفوا فى نفوسهم على ما ارتكب مستنكرين بقلوبهم لما ارتكب.. ولو أن تغيير المنكر بالقوة أو باليد كان حقا لكل إنسان فى المجتمع، لما كانت هناك ضرورة أن يقول الرسول: فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه.. بل كان يقول من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، أو كان يقول من رأى منكم منكرا فليغيره.. وربما كانت هذه العبارة أوسع وأعم، ولكنه ﷺ أراد أن يحدد الوسيلة بحسب ولاية الشخص وقدرته.. وإلا لما كان هناك داع إلى أجهزة

أمن وإلى قضاة وإلى حكام.. ومثلها كان موجودا أيام الرسول.. فكان هناك ولاة وحكام وقضاة.. وقد اختارهم الرسول وعينهم ليرجع إليهم الناس عندما يختلفون، فإذا كان تغيير المنكر باليد هو حقا من حقوق كل إنسان فلماذا إذن كان الحكام والولاة ومديرو الأمن والقضاة.. فالحاكم عن طريق الأجهزة التى يعينها هو الذى يملك إذن حق تغيير المنكر بالقوة.. وهذه الأجهزة ومعها المحكومون يملكون حق تغيير المنكر باللسان.. بالنصح والإرشاد والإبلاغ عن المخالفين.. والمحكوم حدود ولايته فى استخدام اليد أو القوة داخل أسرته.. الأب بالنسبة لأبنائه.. فإذا لم تكن للمواطن ولاية فى استخدام القوة أو اللسان كان له القلب هو الوسيلة الثالثة، وهى القلب التى يقول فيها: «اللهم إن هذا منكر لا يرضيك».. وفى جميع الأحوال يكون على هذا المواطن أن يبدأ بنفسه فى عدم ارتكاب المنكر بكل صنوفه.. لا غش.. لا كذب.. لا خداع فى العمل.. الحفاظ على المال العام.. ولو أننا التزمنا بذلك.. أو لو أن هذا الشباب الذى يدعو إلى تغيير المنكر بالقوة التزم بأن يبدأ بنفسه هو لكانت النتيجة مجتمعا أفضل كثيرا..

عزيزى شريف:

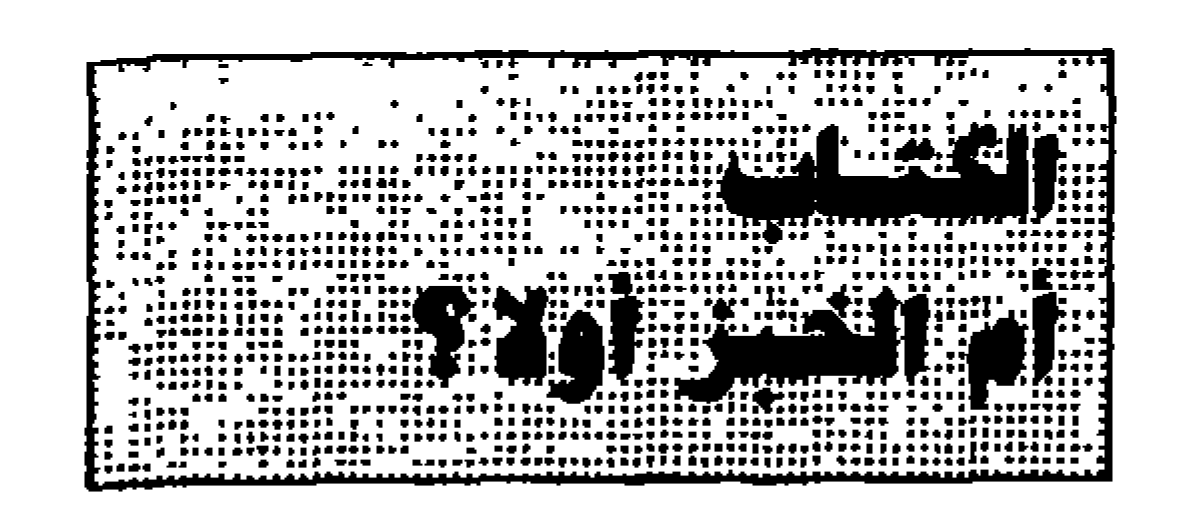
لعلى أختم خطابى هذا بآية كريمة.. يقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة النساء: ﴿وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذًا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا﴾..

إننى أرجوك أن تقرأ هذه الآية مرة ثانية وثالثة.. وأسألك: هل هناك أبشع من الاستهزاء والسخرية بآيات الله؟ هل هناك أفدح من أن تحضر مجلسا يتم فيه ذلك؟ أليس هذا منكرا؟ ومع ذلك ماذا قال الحق؟ لم يقل اضرب من تسمعهم يقولون ذلك، أو اعتد عليهم، أو أوقف سخريتهم، بل قال ﴿لا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره﴾ أى اتركهم واهجرهم طوال فترة هذا الحديث الذى يسخرون فيه بآيات الله ثم عد إليهم عندما يخوضون فى حديث آخر..

لعلى أطلت عليك هذه المرة.. ولكن عذرى هو قلقى على هذا الشباب

ورغبتى الصادقة فى أن يبدأ بحقيقة مؤكدة، هى أننا كنا فى مثل سنه نعتقد أننا عرفنا ما لم يعرفه الآخرون، وعندما مضت بنا السنوات والخبرات اكتشفنا أن كل ما كنا نعرفه لم يكن سوى حروف قليلة فى سطور كثيرة بين صفحات عديدة وسط كتب لا أول لها ولا آخر..





الكتاب أم الخبز أولا؟

عزيزى شريف:

أستأذنك فى أن أعيد عليك كلمات خطاب تلقيته من والد مشغول مثلى بقضايا الشباب وبهمومهم، وهو فى رسالته يثير قضية هامة تتعلق بقراءات الشباب، وهل يستطيعون؟ وكيف وسعر الكتاب اليوم أصبح عائقا طبيعيا فى وصوله إلى أيديهم؟

ربما كان من الأفضل أن أؤجل تعليقى على الخطاب إلى ما بعد قراءته.

يقول الخطاب: أصبح من القول المعاد أن نسمع عن تثقيف الشباب وتغذية عقولهم وملء فراغهم فى الوقت الذى نجد فيه خبز هذه العقول وقد ارتفع ثمنه وأصبح مستحيلا عليهم.. وحتى الخمسينات كانت الإذاعة فى بلادنا هى أخطر منافس للصحف، ولكنها لم تستطع أبدًا منافسة الكتاب الدسم الجيد الطبع الزهيد الثمن.. وقد عثرت على نسخة من رواية «الحرب والسلام» للكاتب الروسى الشهير ليوتولستوى، إصدار عام ١٩٣٧ عن دار روايات الجيب، وكان ثمنها خمسة مليمات. ولهذا فإن من الغريب أن نشكو ونحن فى أواخر القرن العشرين من وجود أزمة فى القراءة، ولكن ارتفاع تكلفة طبع أى كتاب أدى إلى عزوف الشباب عن القراءة اكتفاء بجرعات الثقافة السهلة التناول التى يقدمها التليفزيون. أى أن الأزمة هى أولا وآخرا أزمة القارئ الذى يريد أن يستمتع بمتعة القراءة ولكنه لا يستطيع أن يدفع لأنه لا يمتلك ولا يقدر على ثمن الكتاب. وهذا القارئ المغلوب على أمره ماديا هو العمود الفقرى لأى نهضة أدبية. ونتيجة

لذلك أصبح من المعتاد أن نرى من حين لآخر إحدى المكتبات ذات الموقع المرموق وقد تحولت إلى محل لبيع الأحذية، مما يقطع بأن هذا التحول يدر عائدًا ماديا مجزيًا يتناسب مع «خلو الرجل» الكبير والمغرى الذى تم دفعه لصاحب المكتبة ومع مصروفات التأسيس الباهظة.

وللتغلب على هذه الأزمة الثقافية فإننا كما ندعم رغيف الخبز لأنه غذاء الجسم.. يجب علينا أن ندعم أيضًا الكتاب لأنه غذاء العقل، وبحيث تكون أسعار الكتب فى متناول الجميع، وإلا فإن الأزمة ستستمر، ولن يجد مثل هذا الكتاب المرتفع الثمن من يشتريه، وفى ظروف الغلاء الراهنة فإننا نجد أن الغالبية العظمى من المواطنين المثقفين قد أصبحوا يحسبونها بالقلم والورقة لكى يوازنوا أمورهم طوال أيام الشهر، ولذلك فإن من الصعب عليهم أن يفكروا فى إضافة بند جديد لشراء الكتاب.. لأن رغيف العيش يأتى أولاً.

عزيزى شريف:

إننى بالفعل أحس حيرة الشباب وعذاباته مع القراءة بسبب ارتفاع أسعار الكتب، وهو ارتفاع لم تقم به دور النشر بحسب مزاجها، وإنما بحسب الضرورات الشديدة التى كان من بينها على سبيل المثال زيادة أسعار الورق زيادة خرافية أستطيع بحكم اتصالى بالمهنة وبمشاكلها أن أحكى لك الكثير عنها.. بالنسبة للورق فقط يكفى أن أقول لك: إن سعره قد وصل إلى ٢٥٠٠ جنيه للطن.. وإن كان هذا يعنى أى شىء فهو أن سعر الكيلو جرام الواحد من الورق قد أصبح ثمنه ٢٥٠ قرشًا.. ولك أن تحسب بعد ذلك ماذا يعنى هذا فى تكلفة أى كتاب مع مراعاة أن عدم انتشار الكتب وقلة مبيعاتها قد أضاف أيضًا مشكلة كبيرة على كل ناشرى الكتب اقتضت منهم حساب أو إضافة فائدة على تكلفة الكتاب تساوى ما كان يمكن أن تحصل عليه لو أنها وضعت الثمن فى أى بنك دون استثمار.. فالكتاب لا يتحرك بنفس سرعة علبة السجائر مثلاً.. ولا أيضًا الحذاء.. ففى الوقت الذى يتم فيه بيع نسخة واحدة من كتاب.. يكون قد تم بيع مائتى أو ثلاثمائة علبة سجائر وعشرة أزواج من الأحذية وربما أكثر! وبالطبع فإن تعطيل ثمن الكتب حتى يتم انتقالها من

المخازن إلى القراء لابد أن يتم تعويضه بفائدة تساوى الزمن الذى تعطل فيه هذا المال.

لا عليك من مشاكل الكتاب الفنية، ولكن الحقيقة المؤكدة أن هناك أسبابًا كثيرة لارتفاع سعر الكتاب، كما أن ارتفاع هذا السعر قد أدى بدون شك إلى تخفيض انتشاره وصعوبة حصول القارئ الشاب على الكتاب.. وبالتالى حرمان الشباب المصرى من أجمل المتع الفكرية والعقلية والتزود بالثقافة.

لعلنى فى هذه المناسبة أضع أمامك فارقًا توصلت إليه بين المتعلم والمثقف.. ففى رأيى أن المتعلم هو الذى اقتصرت قراءته على كتب العلم الذى يدرسه أو تخصص فيه.. أما الثقافة فإنها القراءة التى تشمل مجالات المعرفة الأخرى غير الكتب المدرسية أو علم التخصص. وعلى سبيل المثال فإن الطالب الذى تقتصر قراءته على الكتب المدرسية والكتب الأخرى الخارجية المتصلة بتقوية معلوماته فى المواد التى يدرسها هو طالب متعلم وليس مثقفًا.. والأكثر من ذلك فإن الدكتور أو الطبيب الذى تقتصر قراءته على ما يتصل بمهنته وعلمه فإنه يكون إنسانًا متعلمًا وليس مثقفًا.. الثقافة هى أن يقرأ الطبيب قراءات أخرى واسعة تخرج عن مجال عمله وعلمه.. يقرأ فى الفنون والآداب وعلوم الاجتماع والنفس والقانون بل العمارة والهندسة.. هذه هى الثقافة.. إنها الرؤية الأوسع لمجالات الحياة المتعددة الزوايا والأركان.. وربما لهذا السبب أصبح ينطبق على كثير من شبابنا صفة المتعلمين وليس المثقفين.. فقراءاتهم لم تتجاوز الكتب التى درسوها فى المدارس والجامعات أو مايتصل بها.. بينما احتياجات الثقافة أكثر من ذلك كثيرًا.. ولعلك تذكر أن الأديب الكبير عباس محمود العقاد لم يكن متعلمًا ولكنه كان مثقفًا.. وهذا هو سر معجزته الكبرى فى أنه قفز إلى مرحلة أو قمة الثقافة دون أن يبدأ من سلم التعليم.. لقد أخذ يقرأ ويقرأ فى كل مجال.. لم يترك كتابًا وصل إليه أو وقعت عيناه عليه دون أن يقرأه.. وبذلك أصبح دائرة معارف متنقلة.. كانت متعته القراءة، ولكن شبابنا سحرون من الاستمتاع بهذه المتعة بسبب ارتفاع سعر الكتاب..

إن الكتاب هو خبز العقول، ومالم تنظر الدولة إلى الكتاب بهذه النظرة

العميقة.. وتقم بتقديم الدعم للذين يعملون فيه حتى يقدموا خبزا فكريا وثقافيا وعقليًا للشباب، فإن معاناة الشباب سوف تزداد، وهمومهم سوف تتضاعف..

ومشكلتنا جميعًا- حكومة وشعبًا- أننا أصبحنا نمسك الورقة والقلم ونحسب: كم يحتاج خبز البطون أولاً؟ فإذا كان هناك فائض فكرنا فى خبز العقول، أما إذا لم يكن هناك أى فائض اكتفينا بخبز البطون وصرفنا النظر عن خبز العقول..

وهذا التفكير بكل أسف هو نفس تفكير الدولة ممثلة فى الحكومة عندما تضع أرقام الميزانية.. إن اهتمامها يذهب بل يتركز إلى ما يملأ البطون.. أما مايتجه إلى العقول فإنها تلغيه أو تشطبه من حساباتها.. وكلنا فى ذلك مخطئون.. صحيح أن ما يملأ البطون مهم، ولكن ماذا عندما تمتلئ البطون؟

إن الفارق الوحيد بين الإنسان والحيوان هو أن للإنسان عقلًا يفكر به، بينما الحيوان له عقل ولكنه لا يستخدمه فى التفكير.. وأى مفكر لا يبدأ من فراغ.. أى مفكر يبدأ دائمًا التفكير بعد القراءة، فالقراءة هى وقود الفكر ومحرك الإبداع وبنزين العبقرية.. وعندما تتركز همومنا على ملء البطون دون أن نوفر احتياجات العقول فإننا نحكم على أنفسنا بالتخلف والتجمد والتقوقع فى داخلنا..

ولكن الذى يحز فى نفسى هو استسلام الشباب للمشاكل التى تواجهه فى القراءة، فما دام سعر الكتاب مرتفعًا ألغى القراءة من برنامج حياته.. وبالتالى تبدأ عنده مشكلة أخرى هى مشكلة وقوعه فى التعود على عدم القراءة.. بل أكثر من ذلك عدم استخدام عقله الاستخدام الجميل النموذجى؛ لأنه بعدم القراءة يحرم العقل من الطاقة المحركة ووقود الإبداع وبنزين العبقرية..

وفى شبابنا فقد كان أيضًا سعر الكتاب يبدو بالنسبة لدخولنا ولقيمة الفلوس مرتفعًا وغاليًا ومرهقًا.. ولكننا كنا بدافع الرغبة فى القراءة نواجه هذا المستحيل بزيادة علاقاتنا بدور الكتب والمكتبات سواء تلك العامة على مستوى المدينة أو الخاصة مثل مكتبات المدارس والجامعات.. وهو مالا أجده عند معظم شبابنا.. وبالتالى أصبح هذا الشباب محرومًا مرتين.. مرة من شراء الكتاب بسبب ارتفاع

ثمنه، ومرة من الحصول على الكتاب بسبب ابتعاده هو عن أماكن وجوده..

إننى أحلم باليوم الذى تعدل فيه الحكومة من نظرتها إلى الكتاب، وتضعه فى نفس المكانة التى تضع فيها رغيف العيش.. ولكن إلى أن يأتى هذا اليوم الذى لايبدو أنه سوف يكون قريبًا، فإنه لا يبقى أمام شبابنا غير الذهاب إلى الكتاب بدلاً من انتظار الكتاب حتى يأتى إليهم..

وأنا أسمع عن مكتبات كثيرة تفتح فى مختلف الأحياء.. بل لعل افتتاح هذه المكتبات أصبح نشاطًا واضحًا وملموسًا، وبالتالى أصبح باقيًا أن يتردد الشباب على هذه المكتبات لإحيائها.. ذلك أن المكتبة بدون قراء تسد نفس المشرفين عليها وتجعلهم يفكرون فى إغلاقها، بينما كثرة المترددين على المكتبة تنعش الحياة فيها.. وتشجع القائمين عليها على زيادة العمل وتجديد الكتب.

إن الخبز ضرورة للحياة، ولكن الكتاب أيضًا من أساسياتها.. فليس بخبز البطون وحده يعيش الإنسان، وإنما بخبز العقول أيضًا يستمتع بنعمة العقل والتفكير والإبداع والتجديد..





عزيزى شريف:

منذ شهور طويلة يلح على سؤالك الذى سألته لى فى رسالة بعثت بها إلى لعلك نسيتها، تطالبنى فيها بأن أكتب إليك بعض دروس المهنة التى أنتسب إليها، على أساس أن أكون لك مرشدًا وهاديًا فى طريقك.

وأنت تعرف أننى لم أحاول أبداً أن أعتلى يوما منبر الخطباء الذين يحولون كلامهم إلى نصائح يطالبون الناس باتباعها.. وكل ما أحاوله فى رسائلى إليك هو أن أضع أمامك بعضا من أفكارى التى أفكر فيها بصوت عال، أو إن شئت الدقة بكلمة مكتوبة..

ثم إننى مازلت أعتقد أننى فى سن صغيرة لم تصل بعد إلى مرحلة الجلوس فوق مقعد الناصحين.. وقد يبدو فارق السن بينى وبينك كبيرًا، ولكن السن هى إحساس نفسى ومادى معًا.. إحساس نفسى وأمره معروف، أما الإحساس المادى فهو أن يشعر الإنسان بأنه يعرف شيئًا يمكنه أن يقوله للآخرين.. ولعل هذا أحد الدروس التى تعلمتها من حياتى فى هذه المهنة الصحفية التى بلغت هذا العام ٣٥ سنة. إنها فترة طويلة تعلمت فيها الكثير.. ومادمت قد طلبت فإننى أقول لك بناء على طلبك: نعم كانت هناك دروس واضحة تصل إلى حد المبادئ التى أستطيع أن أتحدث عنها بصوت عال، ويمكنك أن تختار من بينها ماتشاء وأنا واثق أن فيها ما سوف يفيدك ويفيد غيرك من زملائك وأقرانك..

نعم تعلمت..

تعلمت ألا أحكم على إنسان خصوصًا إذا كان فى منصب عام إلا اذا اقتربت منه وعرفت عنه.. ذلك أنى اكتشفت أن أحكام الآخرين كثيرًا ماتخضع لأمزجتهم الشخصية ومنافعهم الخاصة من هذا الذى يحكمون عليه.. بل غير ذلك وجدت الكثيرين يصدرون أحكامهم ويعبرون عنها بصوت عال دون أن يكونوا قد عرفوا عن قرب هذا الذى يتحدثون عنه.. وفى بداية حياتى كنت آخذ بالسمع، ثم مع كثرة الصدمات التى تلقيتها عندما اكتشفت فى أشخاص اقتربت منهم مدى بعد الأحكام الصادرة ضدهم عن الحقيقة، بدأت أسأل نفسى: ولماذا أخضع لرأى الآخرين؟ لماذا آخذ أحكامهم قضية مسلمة أتبناها أنا وأدافع عنها واعتبرها أحكامًا صادرة منى شخصيا؟ إن أمانة الكلمة تقتضى ألا أحكم قبل أن أعرف، وألا أعرف قبل أن أقترب من هؤلاء الآخرين..

نعم تعلمت..

تعلمت أن أكون صادقًا فيما أكتب.. وتعلمت أن القارئ البسيط يستطيع أن يستشعر هذا الصدق ويميز بينه بكل دقة وبين عكسه..

أذكر أن الأستاذ إبراهيم الوردانى طلب منى أن أكتب له مقدمة كتابه «فلاح فى بلاط صاحبة الجلالة» فما كان منى إلا أن كتبت بكل أمانة وصدق فضل إبراهيم الوردانى علىَّ فى حب الكتابة.. فقد كان بحق ناظر أول مدرسة تعلمت فيها معنى أن أكتب.. وأن يكون لما أكتبه هدف أو طعم أو مذاق.. وكنت أول من يعترف ويسجل ذلك كتابة على نفسه، لم يسبق على ما أذكر أن أعطى أحد كتّاب جيلى فضلا للأستاذ إبراهيم الوردانى عليه.. لكننى بكل الصدق مع النفس أعطيه هذا الفضل.. وعلى عكس ما قاله زميل تخوف أن أخرج على الناس بغير ما تعودوا عليه من أن أساتذتى هم طه حسين والعقاد وأحمد أمين وغيرهم، فإننى أحسست بالتقدير الكبير لما قلت.. وكانت سعادتى أكبر عندما كتب آخرون كثيرون عن كتاب الأستاذ الوردانى وقد تذكر كثيرون إعجابهم بجواهر كلماته وكنوز التعبيرات الغريبة المميزة التى يغترف منها أوصافه وكلماته..

نعم تعلمت..

تعلمت أن تكون هناك قيم سامية أحاول الحرص عليها.. قيم لا أتحدث عنها وإنما أتمسك بها.. لا أكتبها لافتات تجذب الأنظار وإنما أترك القارئ يستشفها ويستشعر طريقها عبر الكلمات والحروف..

إن الكاتب الذى بلا قيم مثل الشجرة التى بلا جذور..

نعم تعلمت..

تعلمت ألا أتطلع فيما أكتب إلى إعجاب القارئ وانما إلى احترامه، إلى تقديره لا إلى رضاه..

ليس المهم أن أتفق مع القارئ فى رأيه؛ فمن المستحيل أن يرضى الكاتب كل الأفكار والأذواق والاتجاهات، ولكن من السهل أن يكسب احترامهم وتقديرهم حتى إذا اختلف معهم مادامو يحسون فيه الصدق، ومادامو يحسون فيه أنه يحاول مخاطبة عقولهم لاعواطفهم فقط، وإنه لا يستسهل الإمساك بالقلم ليكتب أى شىء فى أى شىء، وإنما يسبق الإمساك بالقلم جهد كبير قام به فى التفكير والبحث ومحاولة المعرفة..

نعم تعلمت..

تعلمت ألا أضيق بنقد يوجه إلىَّ، فأنا أمارس دور الناقد، ومن حق الآخرين علىَّ أن يقولوا أيضًا رأيهم.. وإلا فما أسوأ أن تقول ما لا تقبل، وأن تحرم على الآخرين ماتحله لنفسك..

نعم تعلمت..

تعلمت ألا أمس طهارة شخص وألا أشك فى ذمة شخص ولا فى سيرة إنسان إلا إذا عرفت بالخبرة والمعرفة والدلائل التى أمسك بها حقيقة ما أقول.. كل الناس فى نظرى أبرياء إلى أن يتضح العكس بالنسبة لأى منهم..

نعم تعلمت..

تعلمت أن الدنيا ليست كلها خيرًا كما أنها ليست كلها شرا.. وبقدر ما فيك

فى داخلك من خير يكون إحساسك بالخير.. وبقدر ما فيك فى داخلك من شر يكون إحساسك ولقاؤك بالشر..

نعم تعلمت..

تعلمت أن أعظم مشاعر السعادة يكون فى لحظة عطاء بدون استعراض.. وأن العلاقات الإنسانية ليس أساسها علم الحساب: فلأن أعطيه كذا ويجب أن يعطينى كذا.. الخير هو البذور الوحيدة التى تزرعها فى أرض وتحصد ثمارها فى أراض أخرى.. ولو زرعت خيرًا بقصد أن تحصده أو تنتظر ثماره فسوف يطول انتظارك، ولو ألقيت بذور خيرك دون أن تنتظر مردودا فسوف تفاجأ بسرعة هذا المردود..

نعم تعلمت..

تعلمت ألا أتمسك برأى اكتشفت خطأه.. فالشجاعة الحقيقية ليست فى قوة التمسك بالخطأ وإنما فى قوة العدول عنه إذا اكتشفت هذا الخطأ..

نعم تعلمت..

تعلمت ألا أعطى علاقاتى الخاصة امتياز تأثيرها على أفكار عامة أقولها، أو أن أحكم على الأمور من خلال مشاكلى الخاصة وظروفى الخاصة..

القارئ يريد أن تتحدث عن مشاكله لا أن تحدثه عن مشاكلك.. همومك مهما كانت فهموم المواطن فى نظره أكبر، ويريد منك وقد أمسكت بالقلم أن تعبر عن هذه الهموم الكبيرة لا همومك الصغيرة فى رأيه.. على أن همومك قد تكون أعظم وأكبر ولكنه يرى لمجرد أن معك قلما أن وظيفتك أن تكتب عنه لا عنك.. وهو على حق..

نعم تعلمت..

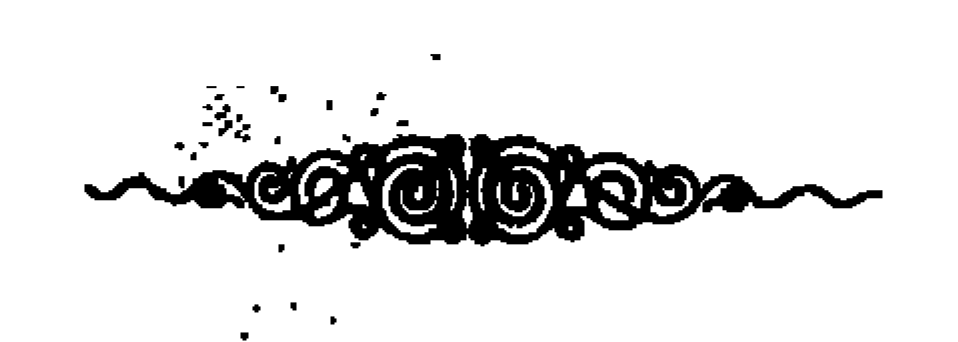
تعلمت ألا أتصور أبدًا أننى أصبحت أعرف كل شىء عن أى شىء.. كل كتاب أقرؤه.. كل موضوع.. أحس أننى تعلمت شيئًا جديدًا منه، وأن هناك الكثير الذى يجب أن أعرفه.. فالحياة سباق إلى المعرفة.. وكما أن الأرض كروية

فكذلك المعرفة، ولهذا تبدو لنا تلك المعرفة كأننا نمسك بها، ولكننا مانكاد نقترب منها حتى نراها كما نرى الأرض.. بعيدة دائمًا عن أن نمسك بها أو نعرف حدودا لنهايتها..

عزيزى شريف:

هل ضايقتك ببعض ما تعلمت؟

لقد كنت أنت الذى طلبت، فلعلى أكون قد وفيت.





الثراء الحقيقى..

عزيزى شريف:

لابد أنك عشت مع مصر كلها، بل العرب أيضا، مهرجان الفرحة الكبيرة بفوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل للآداب والفنون.

وجائزة نوبل كما تعرف هى أسمى جوائز التقدير على مستوى العالم كله، وقد أخذت اسمها من اسم صاحبها الفريد بيرنارد نوبل.

كان نوبل مهندسا كيماويا، إليه يرجع الفضل فى اختراع مادة الديناميت والمتفجرات، وعندما توصل إلى اختراعه فقد كان هدفه أن يخفف عن الإنسان جهده، وييسر له المشاق التى يواجهها فى شق الطرق وفى اكتشاف المعادن فى المناجم، وفى تمهيد الأرض لاستثمارها.. كان نوبل يقصد باكتشاف الديناميت أن يكون رسول خير إلى البشرية، ولكنه فوجئ باختراعه يدخل معامل البحث أساسا للقتل والتدمير.. كان يريد الحياة فوجد أن اختراعه أدى إلى موت الكثيرين الذين استخدم ضدهم.. وكان يهدف إلى أن يساعد الديناميت الإنسان فى البناء.. فإذا به يجد اختراعه وسيلة لنشر الهدم والتدمير.. ومن فرحة بالغة باكتشافه أحس الفريد نوبل بالألم يعتصره ويخنق مشاعره.. ولقد كان اختراعه سببا فى تدفق الملايين عليه.. فالكل راح يتسابق لاستخدام هذا الاختراع ويدفع لصاحبه ثمن اختراعه الذى نشر الموت والدمار والدماء فى كل العالم.. ولأنه أراد أن يكفر عن اختراعه الذى تحول إلى جريمة كبرى ارتكبها، فإنه أوصى بأن تتحول ثروته إلى وسيلة لنشر السلام والحب وأجمل المعانى التى من أجلها تبتهج

البشرية وتحلو الحياة..

كانت وصية الفريد نوبل، وهو من أصل سويدى، أن يقسم عائد ثروته الضخمة إلى خمس حصص.

توزع على خمسة من الذين يتم اختيارهم على مستوى العالم كله فى خمسة فروع: الطبيعة، والكيمياء، والطب، والأدب، والسلام. بحيث يفوز بالجائزة فى كل من هذه الفروع من يكون قد قدم اختراعا أو كشفا أو عملا يفيد البشرية ويخفف آلام الإنسان، ويمتع مشاعرهم بالخير والحب والسلام..

ولقد مات نوبل فى عام ١٨٩٦ ولكن الأمر احتاج إلى ٥ سنوات كي يتم الترتيب والإعداد لاختيار الفائزين وتسليمهم جوائزهم فى ١٠ ديسمبر، وهو نفس اليوم الذى مات فيه نوبل.

واعتبارا من عام ١٩٠١ عرف العالم لأول مرة الفوز بجائزة نوبل، وقد احتفظت بمكانتها وقدرها، فلم تبزها أو تتفوق عليها أية جائزة أخرى حتى اليوم..

وما عدا جائزة نوبل للسلام التى منحت للرئيس الراحل أنور السادات، لم يحدث أن فاز عربى واحد بأية جائزة من جوائز نوبل خلال الـ ٨٧ سنة الماضية، ولكن ها هو ذا الأديب والروائى المصرى نجيب محفوظ يفوز هذا العام بجائزة نوبل للآداب والفنون ليسجل ليس فقط حصوله على هذا الوسام الرفيع، وإنما كأول مصرى وعربى يفوز به.

كانت أجمل مفاجأة للجميع، وأولهم نجيب محفوظ نفسه الذى كان نائما عندما رن التليفون فى بيته يحمل لزوجته النبأ السعيد، وعندما ذهبت إليه الزوجة تبشره وتبلغه الخبر فإنه نظر إليها بوجهه الهادئ وقال لها: «بلاش أحلام».

وعندما تأكد أن الحلم حقيقة، ان الخبر أصبح سطورا مضيئة تطوف كل العالم فإنه فى أول تصريح أدلى به تعبيرا عن شعوره قال إنه فى هذه اللحظة يذكر كل الذين رحلوا من عظماء مصر: طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم فقد كانوا أجدر بهذه الجائزة.. وهذه هى القيم العظيمة..

القيم الأخلاقية والمعنوية التى يتصور البعض أنها فقدت قيمتها فى مجتمعات وعوالم تسيطر عليها المادية ويترجم كل شىء فيها إلى قيم مادية أو سعر محدد..

ولكن هذا هو نجيب محفوظ فى هذا العالم.. ملابس بسيطة.. سكن بالإيجار فى شقة متواضعة.. لم يكن فى البيت جهاز فيديو حتى قبل شهور قليلة، ولا أمام العمارة التى يسكن فيها سيارة فخمة.. ولا فى البنوك أرصدة ضخمة.. ولكنك لو فتحت أية صحيفة أو أية مجلة فى أى مكان فى العالم فسوف تجد صورته واسمه..

هذا إنسان لا ينطبق عليه ما يؤمن به كثير من زملائه بأنه «عندك قرش تساوى قرش»، فالذى عنده أغلى من أى قيمة مادية، وهو ما أطالبك أنت وزملاءك بالتأمل فيه طويلا..

الحياة يا ولدى ليست الفلوس والسيارات والعمارات والعزب والمجوهرات.. الحياة ليست السباق الرهيب لجمع المال والاستناد الى أرصدته بحجة تأمين المستقبل..

الحياة يا ولدى هى القيمة التى تضيفها إلى البشرية بفكرك وإبداعك وإلهامك وصدقك وإخلاصك وإيمانك وأخلاقك.. كم من أفراد توالوا على مر الزمن وجمعوا الأرصدة واقتنوا العمارات والأراضى والمجوهرات وأفخم الرياش.. ولكن من يذكرهم فى التاريخ الإنسانى؟

من النادر أن تجد يا ولدى مليونيرا حفر اسمه فى التاريخ لمجرد أنه امتلك الملايين، بينما نجد مئات وآلاف الأسماء فى كل الدنيا لعباقرة فقراء مفكرين وفنانين ومخترعين ومجددين ومبتكرين أثروا البشرية كلها بفكرهم وفنهم وأدبهم وعطائهم..

ما يعطى للإنسان قيمة إذن ليس أن يسعى لإثراء نفسه، ولكن لإثراء الآخرين.. وبقدر ما يتسع إثراؤه للآخرين ترتفع قيمته ويعلو قدره ويضىء اسمه فى جوانب العالم..

حتى أبطال الرياضة الذين يحققون الأرقام القياسية التى تشبه المعجزة قد

يبدو أنهم يثرون أنفسهم بينما الواقع أنهم يثرون المجتمع البشرى كله، لأنهم يعرضون عليه أولا تفوقهم، ويمتعونه أولا بتفوقهم، ولو لم يكن هذا العرض الممتع أمام العالم ما كانت لهم فى صفحات التاريخ قيمة..

إننى لا أريد أن أكتب لك هنا قصة نجيب محفوظ؛ فلابك أنك قرأتها من بين مئات المقالات التى امتلأت بها الصحف والمجلات منذ أضىء اسمه فى شارع الخلود الذى يحمل جائزة نوبل..

وكل الذى أرجوه منك عزيزى شريف وأنت تقرأ سطور هذه الحكاية أن تتوقف طويلا أمام معانى العطاء والمثابرة والالتزام التى كان نجيب محفوظ نموذجا لها.. ثم أضف إلى ذلك كله الأخلاق..

اسأل أى واحد عن أخلاق نجيب محفوظ تجده يقول ما يشبه القصائد فى امتداحها.. وهذه يا ولدى سمة العلماء.. فالعلم والأخلاق يبدوان فى كثير من الأحيان وجهان لعملة واحدة، وبقدر ما عرفت من علماء وقرأت عن سيرتهم فمن النادر أنى قرأت أو عرفت عالما متفوقا فى علمه وعطائه وإبداعه وفكره ولا يتحلى بالأخلاق الكريمة الحميدة..

عزيزى شريف:

عندما مات توفيق الحكيم فى العام الماضى وضع جثمانه على عربة مدفع وأحيط بعلم مصر وتم ترتيب جنازته على مستوى رؤساء الدول..

ولقد عاش توفيق الحكيم دون أن يملك هو الآخر سيارة أو عمارة أو أرصدة فى البنوك.. ورغم هذا أعطى توفيق الحكيم وقدم للفكر ما لا يقدر بملايين الجنيهات وعشرات السيارات والعمارات، وعندما مات توفيق الحكيم لم تستطع الدولة أن تعامله بغير مستوى رؤساء الدول؛ لأنه كان بالفعل رئيسا بارزا فى دولة الفن والفكر والأدب..

وعندما دقت وكالات الأنباء خبر حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل للآداب، وأبلغ الرئيس حسنى مبارك بالخبر، فإن الرئيس قبل أن يفكر فى حفل تكريم أو أى ترتيب آخر وضع توقيعه على برقية أرسلها إلى نجيب محفوظ يقول

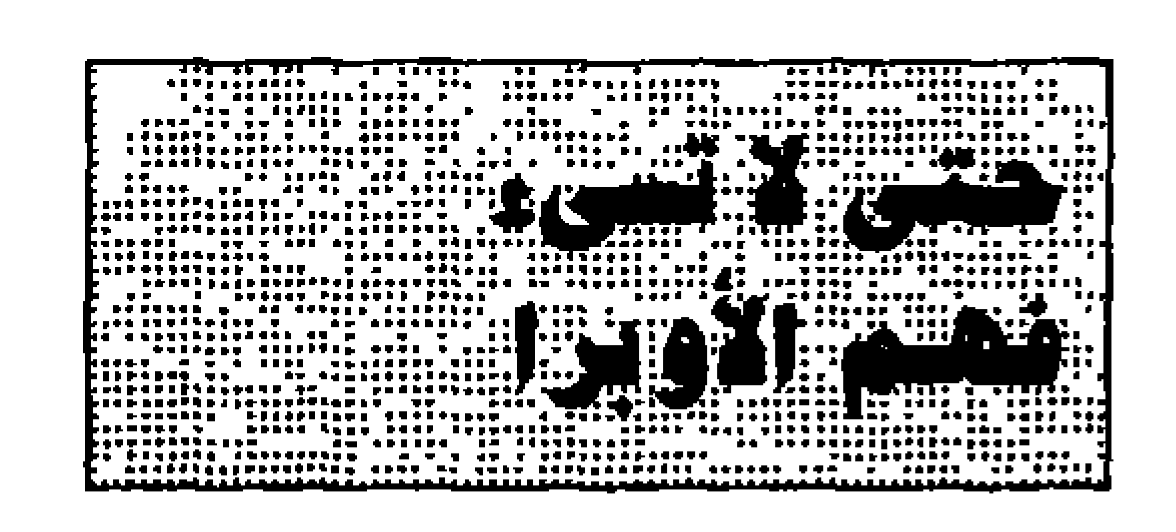
فيها: «إن حصولكم على الجائزة اعتراف منصف بما أثرى به قلمكم الموهوب المجتمع العالمى من قيم جليلة وأهداف سامية تعزز إنسانية الإنسان وتضىء الطريق إلى الحب والإخاء والترابط فى عالم يموج بالصراعات المادية التى تهدد المثل العليا والقيم النبيلة. إن هذا التكريم الذى يحدث لأول مرة لأديب ومفكر مصرى هو تكريم لمصر التى أعطيتها ثمار فكرك ونبض قلمك وأجزلت لها العطاء».

عزيزى شريف:

وفى آخر سطر كتبه الرئيس حسنى مبارك لنجيب محفوظ قال له فيه: «لك كل تحياتى وتقديرى واحترامى».

رئيس الدولة يكتب لمواطن بسيط ويقول له «لك احترامى». أليست هذه هى القيمة المعنوية التى هى أكبر من كل قيمة مادية؟





عزيزى شريف:

من الملاحظات التى يمكنك أن تلحظها فى الحياة تأثر الإنسان فى سلوكه وتصرفاته وطريقة كلامه بعنصرين أساسيين: الملابس، والمكان.. فأنت بالجلباب لك سلوك مختلف غيرك بالبدلة.. وفى المقهى البلدى فإن الزبون له أسلوب مختلف فى السلوكيات غير اسلوبه وهو يجلس فى قاعة فندق جميل يشرب فنجان الشاى على موسيقى عازف بيانو..

وحتى ١٢ أو ربما عشر سنوات مضت كانت دور السينما تهتم بنظافتها وجمالها والأبسطة التى تفرشها عند مداخل أبوابها وعلى طول درجات السلالم.. وكان تكييف الهواء له صوت ناعم أشبه بالموسيقى الحالمة.. وكنا سعداء ونحن نذهب إلى سهرة السينما، بل لا أبالغ إذا قلت لك إننا كنا نرتدى أفخر ما لدينا من ثياب استعدادا لسهرة السينما.. وكان يمكنك أن تلاحظ أن المتفرجين يتبادلون الكلمات همسا، وإذا حدث أن ارتفع صوت أحدهم بطريق الخطأ التفت إليه باقى المتفرجين بعيون تصيبه نظراتها بالخجل والسكتة الصوتية!

لا أعرف ما الذى حدث لدور السينما؟ ولا أكتمك سرا إذا قلت لك أننى لم أدخل سينما منذ أكثر من عشر سنوات، بعد أن سادها إهمال أصحابها، فاختلف المكان واختلف سلوك المشاهدين، وأصبح من النادر أن يفكر زوج وزوجته فى قضاء سهرة سينمائية، وإذا حدث فلا أحد يفكر فى الملابس التى يرتديها، ولهذا فإنك لو نظرت إلى متفرجى إحدى دور السينما وهم يخرجون منها عند منتصف

الليل، تعجب لهذا الكرنفال العجيب من الملابس التى تشير إلى عدم اعتناء أصحابها باختيارها. هذا فى الوقت الذى كنت تشاهد فيه متفرجى دور السينما قديما وهم يخرجون منها ليلا.. الرجل بالبدلة الأنيقة والمرأة بأجمل الثياب والفراء والعطور..

هل لهذا اختلف سلوك جيل رواد السينما اليوم عن سلوك رواد السينما قديمًا؟

لابد أن للمكان والملابس - كما قلت - تأثيرا فى ذلك..

ولو أنك نظرت إلى مسارحنا فسوف يفجعك سوء حالها.. هذا رغم ارتفاع أسعار التذاكر التى وصلت فى بعض المسارح إلى ٥٠ جنيها للتذكرة الواحدة!

ورغم ذلك فلو تأملت الكراسى تجد أنها أشبه بكراسى المقاهى البلدية وقد تلاصقت بطريقة استفزازية تجعل كل متفرج كأنه يجلس على ركبة الذى إلى جواره.. والجدران أشبه بالأطلال، وأرضية المسرح كما لو أنها لم تمتد إليها يد لتنظفها لأكثر من شهر.. وغير ذلك رائحة السجائر التى تحس أن لها رائحة قديمة متراكمة من متفرجى حفلات سابقة خرجوا وذهبوا إلى بيوتهم ومضى على خروجهم أكثر من ليلة، لكن بسبب عدم التهوية تراكمت روائح سجائرهم وبقيت فى مكانها تزكم الرواد الجدد، ويضيفون عليها الجديد من دخانهم حتى يصبح المكان يومًا معبأ برائحة السم!

ثم إن خشبة المسرح نفسها لا تختلف كثيرًا عن صالة المسرح.. وإذا أتيح لك أن تدخل خلف الكواليس وتشهد الغرف التى يخلع فيها الممثلون ملابسهم ويرتدون ملابس التمثيل هالك المنظر المرعب الذى يعيشون فيه..

فهل يمكن أن تعجب بعد ذلك لتدهور المسرح والسينما وارتفاع الصراخ فى جنبات القاعة وقزقزة اللب والسودانى وغير ذلك من تعليقات نابية تنافس الإسقاطات الجنسية التى هبط إليها الحوار فوق المسرح؟

لماذا أقول لك ذلك؟

إننى كنت أريد أن أبدأ هذه الرسالة بعبارة أقول لك فيها: عزيزى شريف.. ألف مبروك على دار الأوبرا الجديدة.. لكننى خشيت أن تكون من أصحاب هذه

الآراء التى ترى فى الأوبرا الجديدة طبقية بعيدة عن حياتنا، وفنا يتبادل أبطاله الغناء بطريقة غير واقعية وغير مفهومة..

أردت، على خلاف ما كنت أفكر فيه، أن أبدأ بالحديث إليك عن المستوى الهابط الذى وصلنا إليه فنيًا من حيث المكان.. من حيث الشكل.. دور السينما والمسارح، لكى تعرف أنه إذا كان هناك أسباب لهبوط المستوى الفنى الذى نعانى منه فأحد هذه الأسباب هبوط المكان الذى تؤدى فيه مختلف الفنون..

لعل بعد ذلك أقول لك إن أهم قيمة للأوبرا الجديدة هى الاختلاف فى المكان وفى الشكل..

فى كل العالم ليس هناك مكان يطلق عليه «أوبرا» ولا تكون له مواصفات خاصة من النظافة والرقى والعناية والنسياكة والأناقة..

ولو أتيح لك أن تسافر الى الخارج وتحضر عرضا فى أوبرا فينا أو أوبرا موسكو أو برلين أو لندن أو واشنطن.. فسوف يدهشك أولا منظر احتفاء المتفرج بنفسه وهو يحضر هذا العرض..

سوف يدهشك مثلا أن معظم الزوار من الرجال يرتدون البدلات السوداء المعروفة باسم السموكنج، والبابيون الأسود..

ولقد فكرت شخصيا فى هذه البدلات وسألت نفسى: لماذا؟

لماذا إصرارهم فى بعض الحفلات على ضرورة أن يكون الرجل مرتديا هذه البدلة؟

ووجدت الجواب فى الظاهرة التى بدأت رسالتى بالحديث عنها.. ظاهرة الملابس وتأثيرها على السلوك.. فهم فكروا فى أسلوب أعلى من البدلات العادية.. أسلوب متميز غير مألوف لا يرتديه الرجال فى حياتهم العادية المألوفة فى النهار أو أثناء العمل أو فى المكاتب.. إن من السهل أن تجد رجلا يرتدى بدلة أنيقة فى كل هذه الأماكن، ولكن من المستحيل أن يذهب هذا الرجل إلى مكتبه مرتديا بدلة سموكنج.. ذلك أنهم أرادوا أن يخصصوا لهذه الحفلات الخاصة مثل الأوبرا زيا خاصا.. زيا يشعر من يرتديه بأنه فى ظروف خاصة غير عادية أو

مألوفة.. وبالتالى فإن سلوكه لابد أن يكون مختلفا.. وتصرفاته لابد أن ترتفع إلى المستوى العالى الذى تعكسه البدلة السوداء السموكنج التى يرتديها.

هل عرفت السر إذن فى هذه البدلات؟

بل هل عرفت قيمة الأوبرا؟

قيمة الأوبرا إذن أنها تمثل الجمال والأناقة.. الجمال والأناقة ليس فى الملبس فقط، وإنما فى الفن الذى يؤدى فيها.. فأنت لا تذهب إلى الأوبرا لترى فنا عاديًا.. مطربا عاديا أو منلوجستا يردد النكات، أو مسرحية هابطة يتبادل أبطالها الإشارات الجنسية بالألفاظ والإيحاءات..

متفرج الأوبرا يعرف أن الأوبرا تعنى الارتفاع والسمو والقمة.. وعندما كان عبد الحليم حافظ أو فريد الأطرش يحلمان كمطربين فى الأفلام التى يمثلانها بالوصول إلى القمة، فقد كان غناؤهما فى الأوبرا يمثل هذه القمة الحلم.. ولعلى قد سبق أن قلت أنه إذا كانت العطور تبدأ من ماء الكولونيا ثم اللوسيون ثم ماء التواليت، ثم البارفان، فإن الأوبرا هى «الأسانس».. الذى يمثل درجة أعلى من «البارفان».

وتاريخيا فقد عرف العالم الأوبرا عام ١٦٠٠ عندما قررت مجموعة من الشبان الفنانين الموسيقيين فى فلورنسا فى تقديم عمل فنى جديد على أعلى مستوى يختلف عن أنواع الفنون الأخرى، وينعشون به الطريقة التى ورثوها عن اليونانيين القدماء فى كتابة الموسيقى والمسرحيات.

كانت كلمة OPUS وهى كلمة لاتينية تعنى «عملا».. وهداهم تفكيرهم إلى أن يقدموا مجموعة أعمال مشتركة وليس عملا واحدًا.. الموسيقى مع الباليه مع الغناء مع التمثيل مع الديكور مع الكورال.. خليط من الأعمال كل منها فى حد ذاته فن وحده، لكنها معا مجموعة أعمال أى OPERA وهى الكلمة اللاتينية التى تعنى جمع OPUS.

ولم تكن الموسيقى السيمفونية قد عرفت فى ذلك الوقت، ولكن منذ بدأ التفكير فى الأوبرا عرف العالم السيمفونيات التى توالى وتتابع العباقرة

الموسيقيون الذين وضعوا ألحانها وماتوا، وبقيت هذه الألحان أو السيمفونيات أو القطع الموسيقية الجميلة نبعا دائما ترتوى منه البشرية متعة وإحساسا وعلوًّا..

ولقد كان من مفاخر مصر أنها كانت أول بلد فى الشرق الأوسط تقام فيه دار أوبرا، وهى التى أقامها الخديو إسماعيل وافتتحها فى أول نوفمبر عام ١٨٦٩، ومن أجلها تم الاتفاق مع الموسيقار الكبير فردى لوضع موسيقى أوبرا عايدة التى تم استلهام قصتها من التاريخ المصرى الفرعونى.. وقد وضع فكرة هذه الأوبرا عالم الآثار الفرنسى الشهير مريت الذى أطلق اسمه على أحد شوارع وسط القاهرة.

ولقد دخلت أوبرا عايدة متحف الخلود، وأصبحت واحدة من مشاهير الأعمال الفنية العظيمة..

ولكن ليس معنى الأوبرا ضرورة أن تقدم ما هو إيطالى، أو ما يؤدى بطريقة الغناء الأوبرالى التى يرى البعض أنها طريقة غير واقعية.. وهى بالفعل كذلك.. فليس فى حياتنا من يتحاور مع الآخرين بهذه الطريقة الغنائية.. كما أنك تستطيع أن تقول إنه ليس فى حياتنا أيضا من يسير فى الشارع ويغنى أغنية تنساب موسيقاها وألحانها بنفس الطريقة التى يغنى بها المطربون فى الأفلام..

فالغناء أصلا طريقة غير مألوفة فى الحياة، ولكنه فن يمتع الحواس، وصوره مختلفة عن الغناء الخفيف إلى الأوبرالى..

ولكن الفكرة من الأوبرا، وهذا أعظم ما أراه فيها، إنها الفرصة أو الحافز لرفع مستوى أنواع الفنون المختلفة التى هبطت فى بلادنا أو يئس أصحابها من محاولة تقديم شىء جميل..

ولقد كنت قبل الأوبرا أعذر الذين لا يجدون الدافع لكى يجودوا فى أنواع الفنون التى يقدمونها، بسبب عدم وجود المكان الذى يمكن أن يقدم فيه أى عمل جيد يقدمونه، ويكون رواد هذا المكان على مستوى لائق من السلوكيات.. مع الأوبرا سوف يجد المؤلف ما يدفعه إلى التفانى فى تقديم الأفضل.. ونفس الشىء مع الملحن والمغنى والممثل وفنان الديكور والمايسترو والموسيقار وكل الذين

يعملون فى أنواع الفنون المختلفة..

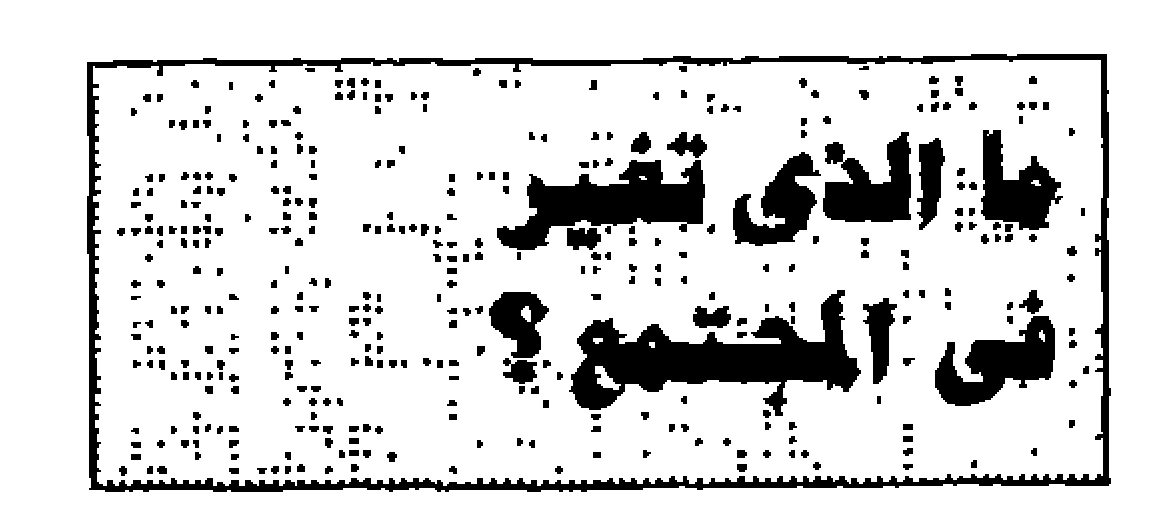
ولو أنك تذكرت متى هبط الفن فى مصر لأمكنك أن تجد رباطًا بين احتراق دار الأوبرا القديمة فى عام ١٩٧١ وهذا الهبوط الذى حدث خلال ١٧ سنة..

وليس معنى إنشاء الأوبرا أننا سوف نرتفع فورا بمستوى الفن الذى تدهور فسوف يحتاج هذا إلى وقت، ولكن يكفى إحساسنا بأننا نصعد بدلا من أن نهبط.. ويكفى الإحساس بأنك تشم هواء نقيا فى مكان جميل صحى بدلا من الهواء الفاسد الذى كنا نشمه ونبتلعه فى دور السينما والمسارح..

يكفى تطلع كل فنان اليوم فى مصر إلى أن يقدم عملا فنيا فى دار الأوبرا.. ومحاولة لتحقيق ذلك يقدم فنا جيدا راقيا عاليا..

عزيزى شريف: مبروك عليك دار الأوبرا الجديدة.. ولعلنا نلتقى يوما فى إحدى حفلاتها.





عزيزى شريف :

استوقفتنى فى آخر خطاباتك جملة كنت تقولها عرضا : ماذا حدث فى المجتمع ؟ ما الذى جرى فيه ؟ والذى أعرفه أنك ما زلت فى سن أقل من الثلاثين، ومع ذلك فأنت تسأل : ماذا حدث للمجتمع، وماذا جرى فيه ؟ مع أن أهم ما جرى فى هذا المجتمع لا يستطيع أن يلحظه بسهولة وبمرارة غير الذين عبروا خط الخمسين، وأصبح لهم زمانان.. زمان قديم ينتمون إليه فى طفولتهم وبعض سنى شبابهم، وزمان حديث يعيشون فيه.. عذابهم هو الماضى بكل صوره وألوانه وتنوعاته، وهم فى كثير من الحالات يجترون هذا الماضى وهم يقارنونه بما يجرى اليوم ويحدث..

ما الذى جرى فى المجتمع ؟ إنه سؤال يذكرنى بسؤال وجهته إلى إحدى المذيعات عن أهم القيم التى تغيرت فى مصر، وماذا عن المستقبل ؟ فكرت فى هذا السؤال مخلصا وانتهيت إلى أن هناك عديدا من القيم تغيرت، إلا أننى أرى أن أهم قيمة أصابها التغير هى علاقة المصرى بالعمل.. وفى رأيى أن تغير هذه القيمة هو الذى ألقى بظلاله وتأثيراته على باقى القيم والنواحى وأوجه الحياة..

سوف أعود بك إلى سنوات طفولتى التى عشتها فى مدينة صغيرة اسمها دمياط.. لم تكن مدينة بمعنى الكلمة، لكنها أيضا لم تكن قرية.. فى هذه السنوات فى النصف الثانى من الثلاثينات كانت لمبة الجاز هى العيون التى نرى بها فى الظلام، فلم تدخل الكهرباء دمياط إلا فى بداية الأربعينات.. ليس هذا هو المهم، وإنما الذى أريد أن أحدثك عنه هو دوامة العمل التى كنت أحس أننى أعيش فيها.. لم

أكن فى هذه السن الصغيرة قد قرأت عن النحل ومملكة النحل، وكيف أن كل نحلة لها عمل تقوم به.. حتى صغار النحل الذى يفقس من البيض ولا يستطيع الطيران ومغادرة المنحل.. فقد اكتشفوا أنه يعمل «ساعيا».. فهذه الصغار من النحل تقف على أبواب المنحل منتظرة وصول النحل الكبير حاملا رحيق الزهور وإفرازاته من العسل، ويقوم بأخذ هذا الرحيق منه من على الباب وإدخاله إلى داخل «المنحل» تاركا الفرصة للكبار لاستغلال الوقت وتوفير مشوار الدخول ووضع العسل فى مكانه.. فى مملكة النحل ليس هناك عاطل.. لا كبير ولا صغير.. وكذلك كنا فى دمياط.. لا أكاد أذكر شخصا لا يعمل.. ولكن لم يكن المهم هو ارتباط هذا الشخص بالعمل وإنما حبه وإخلاصه وغرامه بهذا العمل الذى يقوم به مهما كان نوعه.. أهم من العمل حب العمل.. ولهذا كان الجميع يجيدون وينتجون ويحققون كسبا من هذا العمل. ولم يكن الكبار وحدهم الذين يعملون.. الصغار أيضا كانوا يعملون، وكان يمكن تقسيم هؤلاء الصغار إلى قسمين: قسم يذهب إلى المدرسة ويعتبر التعليم نوعا من العمل الذى عليه أن ينجح فيه، ونوع آخر يذهب إلى الورش المختلفة، ورش الموبيليا والأحذية والألبان والحلويات ومضارب الأرز ومع صيادى السمك وصناعة السفن.. إلخ.

وكان هناك من يجمع بين الاثنين: بين المدرسة والعمل.. وأذكر أن تعرضت مدرستا دمياط الابتدائية والثانوية – وكانتا فى مبنى واحد – لقرار بالإغلاق بسبب المظاهرات الوطنية التى كنا نطالب فيها بجلاء الإنجليز، ووجدت نفسى عاطلا بلا مدرسة ولا أى شىء آخر.. ودون أن يجبرنى أحد أو يطلب منى أحد «نزلت» إلى معمل حلويات أقاربى فى دمياط، ووقفت مثل أى عامل أمام «كانون» المشبك وصوانى البسبوسة واللذيذة وجوز الهند.. وبعد أكثر من أربعة أسابيع أعيد فتح المدرسة فتركت المعمل وعدت إلى المدرسة.. ولم تتوقف الدراسة فى أى وقت إلا وجدت نفسى أعود إلى المعمل لأشارك العمال عملهم.. إننى أسأل اليوم نفسى: ما الذى جعلنى أفعل ذلك؟ هل هو حب التقليد؟ ربما.. ولكنه المناخ.. الجو الذى كنا نشم فيه أن اليد البطالة نجسة كما يقول المثل، وأنه مهما ارتفع الإنسان فإن قيمته هى عمله، وأنه مهما كان ملبسه أو مظهره فالمهم هو ما يعمل.. ولهذا كان الدمياطى القديم لا يهمه ما يلبس أثناء العمل.. لأنه

يعرف أنه ليس هناك من يقلل من شأنه إذا وجده يعمل.. وإنما التحقير الحقيقى هو ألا يعمل. ولم تكن دمياط وحدها على ما أعتقد هى التى تتميز بهذه الميزة وإن تفوقت فى مجالات العمل العديدة التى كانت تمارسها، وإنما كانت مصر كلها تشارك فى هذه الميزة.. كان الفلاح المصرى - وكان أكثر من ستين فى المائة من سكان مصر من الفلاحين - يبدأ يومه قبل أذان الفجر.. ومن النادر أن يبقى فلاح فى بيته بعد صلاة الفجر إلا إذا كان مريضا.. ولم يكن هذا هو المهم، وإنما كان الأهم هو السطور الواضحة التى تستطيع أن تقرأها على وجه كل فلاح وهو ذاهب إلى قريته.. حب العمل.. الإخلاص فيه.. ولهذا كان للخضرة يومها لون آخر.. خضرة عفية تنطق بالقوة والصحة والعافية.. ولو نظرت إلى المصرى وتاريخه لوجدت أنه من الذين يعشقون العمل.. ولا يمكن تصور أن أجدادنا المصريين القدماء قد فعلوا كل الذى فعلوه من معجزات إلا بالحب.. حب العمل إلى درجة العبادة.. وعندما دخل الدين الإسلامى إلى مصر تكن دعوته إلى التوحيد وعبادة الله دعوة إلا إلى العمل؛ باعتبار أن حركة الحياة أساسها العمل.. وأن اليد العليا التى تنتج وتكسب وتستطيع العطاء خير من اليد السفلى التى تنتظر من يعطيها..

وكان من عادة المصرى ومن المعروف عنه أنه يحب زيادة موارده عن طريق المزيد من العمل.. ولهذا كان الكثيرون من الموظفين يعملون فى أكثر من عمل لكي يزيدوا دخولهم.. من العمل.. وكل عمل حركة.. وكل حركة بركة وإنتاج.. وكنا بالفعل ننتج ما نريد وأكثر.. لم يحدث أن استوردنا قديما أردبا من القمح ولا فرخة مذبوحة أو سمكة مجمدة! صحيح أن عددنا زاد، وكان مفروضا أن يزداد إنتاجنا بسبب هذه الزيادة فى السكان، ولكن ضعف إنتاجنا ونقص..

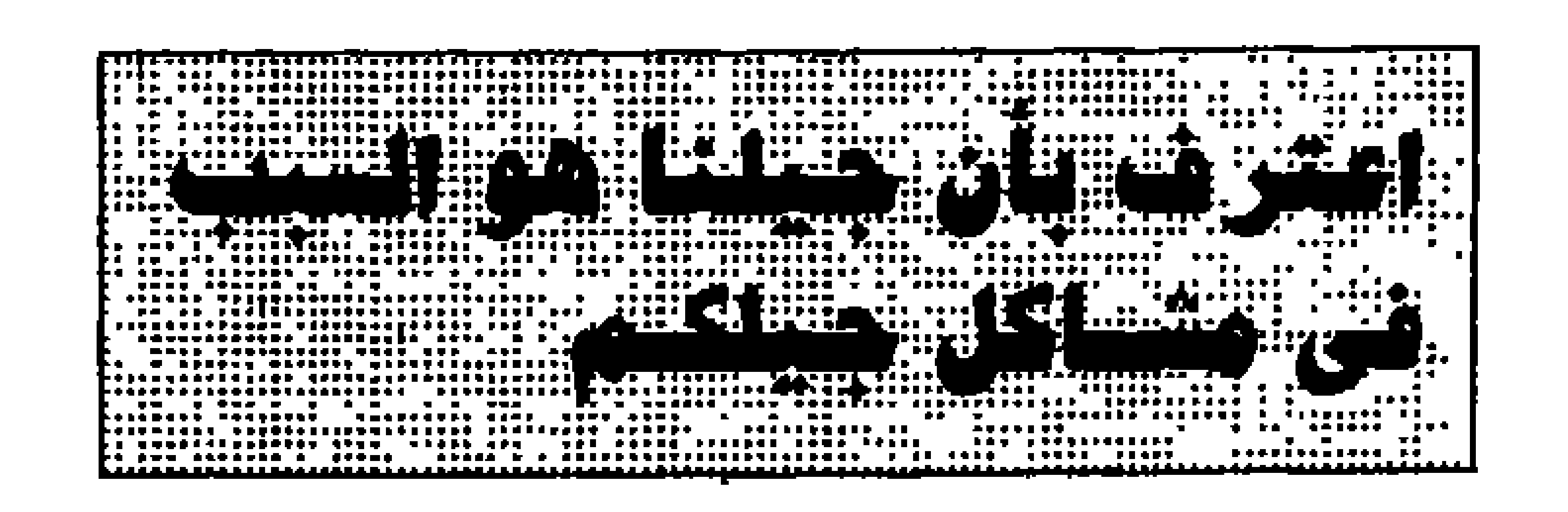
وهى ظاهرة غريبة لابد أن نتوقف أمامها ونسأل أنفسنا: لماذا؟ نعم لماذا عندما كنا عشرين مليونا كنا ننتج أكثر مما نحتاج إليه ولكن عندما تضاعف عددنا أصبحنا نمد أيدينا لأبواب الاستيراد نكمل احتياجاتنا منها بعد أن فشلنا فى إنتاج احتياجاتنا.. مع أن المفروض أن هذه الزيادة السكانية كان يجب أن تكون خيرا وبركة باعتبار أنها زيادة فى قدرات العمل والإنتاج، ولكن المؤسف

أن هذه الزيادة جاءت فى الوقت الذى تقطعت فيه روابط الحب بين المصرى والعمل.. ابتداء من الفلاح إلى الموظف إلى العامل إلى الكمسارى إلى سائق التاكسى إلى المكوجى إلى السباك إلى المحامى.. وحتى إلى الطالب.. وأقول الطالب لأننى أصبحت أرى كل الطلبة يتسابقون على دخول الجامعة بمفهوم واحد خفى: أن يتخرجوا لكيلا يعملوا.. أن يحصلوا على شهادة يجلسون بها فوق مكتب.. أحلامهم فى غرفة مكتب وساع على الباب.. لا أحد يحلم بالتعب والجهد.. وكل الخريجين فى انتظار خطاب القوى العاملة مهما تأخر.. لأنه ورث عدم الإقبال على العمل.. ضاع مفهوم العمل.. أصبح كل واحد يريد زيادة موارده ولكن بدون أن يعمل.. ادخل أى موقع عمل تجد أن القلة فيه هى التى تعمل وتنتج ومازالت فى داخلها نيران الحب للعمل الذى تقوم به، والأكثرية الغالبة هى التى تضيع الوقت بلا عمل وتطالب بالعلاوات والحوافز والترقيات ودخول اللجان المختلفة التى لا عمل حقيقى فيها غير التظاهر بالعمل.. وبعد أن كنا نعمل أصبحنا نتظاهر بالعمل.. وبعد أن كنا نحب العمل أصبحنا نكره العمل.. ولو نظرت إلى وجوه الذين يذهبون إلى أعمالهم فى الصباح لوجدت أن أكثرها يبدو كما لو أن أصحابها بدءوا يومهم بابتلاع شربة زيت! أين المصريون الذين كانوا يتسابقون فى فرحة وهم ذاهبون إلى العمل كأنهم ذاهبون إلى الحبيب الذى يعشقونه؟ وبسبب تدهور قيمة العمل تدهورت قيم كثيرة؛ ولكنها بدأت جميعا من تدهور علاقة المصرى بالعمل.. لقد انخفض الانتاج، وزاد السكان وزاد الاستهلاك، وبدأت الأكثرية تتسابق للحصول على القليل المتاح، وجاءت موجات المادية لتعمى الكثيرين عن زيادة دخولهم من العمل.. ولهذا تحولوا إلى سماسرة.. أغلبية الذين يعملون فى المحاماة سماسرة، وفى التجارة سماسرة، وفى التدريس سماسرة، وفى كثير من الحرف سماسرة.. حتى فى الفن راجت السمسرة.. هل كان يمكن أن يحدث هذا فى مجال العمل دون أن يلقى ظلاله وتأثيراته على الأخلاق والسلوكيات وكل القيم الأخرى؟

فإذا سألتنى: ما الذى تغير فى المجتمع؟ أقول لك على الفور: هذه العلاقة المتدهورة بين المصرى والعمل. وإذا سألتنى عن أهم القيم التى تدهورت، أقول لك: قيمة العمل كمورد للدخل عند المصرى..

أما أسباب ذلك فالحديث فيها يطول، وأنا أشعر أننى أثقلت عليك ونحن فى بداية عام جديد.. وقد كنت أريد الحديث إليك عن هذا العام، ولكنك أثرت خواطرى بملاحظتك العابرة التى وردت فى خطابك السابق. طبعا لا يمنعنى ذلك أن أهنئك بالعام الجديد، وأن أتمنى لك ولغيرك ولكل جيلك الصاعد أن تستردوا ما ضاع.. أن تعيدوا للمصرى حبه الكبير لعمله.. عشقه لعمله.. لو فعلتم ذلك فصدقنى أنكم سوف تحلون كل مشاكل مصر.





عزيزى شريف:

هل تتصور أننى سأجادلك كثيرًا فيما تضمنته رسالتك الأخيرة لى.. لعلك سوف تفاجأ إذا قلت لك إننى أتفق معك فى كثير مما قلته بل لعلى سوف أذهب إلى أبعد من ذلك كله وأعترف لك بأننى من الذين يؤمنون فعلاً بأن جيلنا هو السبب فى مشاكل جيلكم.. فأنتم لم تبدءوا من فراغ وإنما نموتم فى الأرض التى أعددناها لكم.. فإذا كان هناك ماتشكو منه ومانتهمكم به فلأننا فى كثير منه السبب..

لقد كانت البداية ما جاء فى رسالتى الأخيرة إليك ردًا على سؤال وجهته لى تقول لى فيه: ما الذى تغير فى المجتمع.. وقد قلت ردًا على ذلك أهم ما تغير فى رأيى هو علاقة الإنسان بالعمل.. فأنا أذكر فى طفولتى كيف أن كل المجتمع الذى تربيت فيه فى مدينة دمياط كان يقدس العمل إيمانًا بأن العمل هو الوجه الآخر للعبادة، ذلك أن العبادة كما تعرف هى الوظيفة الأساسية للإنسان: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾. ولكن العبادة ليست إقامة الصلاة والصيام والزكاة والحج فقط، بل بجانب ذلك العمل.. أجمل صلاة هى التى يقوم بها الإنسان الذى يعمل.. إنه يترك عمله ومسئولياته ومشغولياته لتأكيد صِلَته بالخالق.. وهذا هو المعنى العظيم للصلاة.. أن يتوازن الإنسان فى حياته ويذكر بجانب مشغوليات الدنيا صلته بربه وخالقه واحتياجات الحياة الأبدية التى يعيش فيها فى الآخرة.. كان مدرس الدين فى السنة الرابعة الابتدائية يقول لنا

إن كل إنسان يسعى إلى تأمين نفسه.. يتعلم لكى يستفيد بعلمه.. يجاهد حتى يجد عملًا يأمن إلى أن يعيش على دخله منه.. يكسب لكى يحقق مطالبه لغده ويوفر جزءا لغده.. يبنى لكى يضمن المأوى والسكن ولا يعيش شريدا– إنها سلسلة متصلة من محاولة تأمين نفسه.. يتزوج لكى يؤمن الشريك الذى يعاونه فى تلبية مطالبه الجنسية والحياة السوية .. ينجب لكى يؤمن اسمه ويحمل أولاده هذا الاسم وهم صغار ويساعدونه على حمله عندما يكبر ويهرم ويصبح غير قادر على السير.. سلسلة متصلة من تأمين الإنسان لنفسه، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يحاول كل منكم تأمين مستقبله فى حياته الأطول والأعدل والأفضل.. إن حياة الدنيا مهما طالت قصيرة بالنسبة لحياة الآخرة.. مجرد لمحة خاطفة.. وإذا كنا نعطيها كل هذا الجهد لتأمين أنفسنا خلال حياتنا فيها، فلماذا ننظر أيضا إلى حياة الآخرة ونؤمن أنفسنا فيها.. إننا فى دنيانا نستطيع أن نبنى قصورًا كثيرة فى الجنة نسكنها ونقيم فيها لو أننا أثناء عملنا لدنيانا راعينا حق الله..

كان مدرس الدين يقول لنا: إن ذلك ليس معناه ألا نعمل ونتفرغ للعبادة، لأنك لو فعلت هذا لن تستطيع أن تقيم أحكام الإسلام، ومنها الزكاة، وإلا من أين ستكسب وكيف إذا لم يكن لك عمل.. وما دام ليس لك كسب فكيف ستقوم بواجبات الزكاة..

وهكذا فإننى لم أستطع أن أنسى أهمية العمل للإنسان، ولا أهمية العبادة.. وكلما امتد بى العمر وجدت الرباط قويًا بين الاثنين العبادة والعمل.. وقد كانت علاقة المصرى كما سبق وقلت لك بالعمل علاقة قوية وطيدة.. كان الفلاح المصرى يسعى لعمله من قبل أذان الفجر، وكان العامل المصرى يجرى إلى عمله بلهفة وفرحة..

وفى مواجهة زيادة المطالب التى يواجهها المصرى كان أول ما يخطر فى فكره وباله هو أن يضاعف عمله لكى يكسب أكثر.. ولكن كما قلت لك فى رسالتى السابقة أصبحت أحس بأن هذه السمة وهذه الرابطة وهذه العلاقة الجوهرية بين المصرى والعمل قد تغيرت.. نعم هناك ملايين يعملون فى كل مكان.. فى المصانع والحقول ومواقع الخدمات.. إلخ، ولكن بغير إحساس بالحب أو الإخلاص أو

الإتقان.. ولهذا كثرت الشكوى.. وأكثر من شكوى الأفراد شكوى الوطن كله واضطرارنا إلى استيراد معظم احتياجاتنا الغذائية من الخارج ورهن أقدارنا فى يد الغير..

إنك فى رسالتك التى أرسلتها إلى ردًّا على ما قلته لك تسألنى فى عصبية: من المسئول يا أستاذ عن كل هذا؟ أليس جيلكم..

وأنا لم أقل أبدًا إنكم السبب فيما حدث، بل أسارع وأقول إننا بالفعل نحن السبب..

كنا السبب يوم أسلمنا للحكومة تولى كل شىء نيابة عنا، بدعوى أن هذه هى الاشتراكية.. الحكومة هى التى تربى والتى تعلم والتى تعين والتى ترقى والتى تعالج، والتى تصرف التأمينات على الحياة.. الحكومة هى التى تبنى والتى تحدد الإيجارات والتسعيرة الجبرية لكل سلعة الحكومة، هى التى تفكر نيابة عن الإنسان وهى التى تخطط لحاضره ومستقبله.. الحكومة هى التى تحدد للفلاح ما يزرعه وتصرف له البذور والسماد، وتشترى منه المحصول بالسعر الذى تحدده.. الحكومة هى التى تحدد سياسة كل الناس وتجمعهم بكل متناقضاتهم فى حزب واحد، وتذيب ما بينهم من فوارق ثقافية أو فكرية.. تركنا كل شىء للحكومة.. وكان هذا خطأ من الاثنين: من الذين قادونا باسم الحكومة ومنا نحن الذين استسهلنا الحياة فى كنف الحكومة.. نأكل من يديها ونتعلم من كلماتها ونردد ما نقوله ونسير فى الطريق الذى تحدده لنا..

وكانت النتيجة الطبيعية لكل هذا موت الحافز الفردى.. وتقوقع الشرفاء.. وتسلق المنتفعين، وزيادة أعداد الكسالى.. والكسل مرض ينتقل بالعدوى وبسرعة بالغة.. وجاءت القوانين الحكومية لتساوى بين من يعمل ومن لا يعمل.. بل ووصل الأمر إلى حد تعرض الذين يعملون بسبب وقوعهم فى الأخطاء إلى الجزاءات.. وأصبح هما من هموم الرياسة فى بعض مواقع العمل هو كيفية كسب رضا الذين لا يعملون، لأنهم متفرغون للشكوى والشكاوى، أما الذين يعملون فلا وقت لديهم ولا مشاكل منهم.. المشاكل كبيرة وكثيرة من الذين لا يعملون..

الترقيات للذين لا يعملون.. المكافآت للذين لا يعملون.. أما الجزاءات فعلى الذين يعملون..!

ولأن الحكومة كانت فى حاجة إلى موارد تصرف منها على المطالب والأعباء الكثيرة التى تحمل بها ظهر القطاع العام.. وبدلاً من أن يساعد هذا القطاع العام الحكومة بما يحققه من مكاسب، أصبح فى بعض الأحيان عبئا عليها بسبب ما يحققه من خسائر.. وساد إحساس بأن هذا «القطاع العام» بروز جديد فى الدولة ليس له صاحب وأنه من حق مديريه وعامليه أن يغرفوا منه ما يريدون!

عزيزى شريف:

هذه بعض أخطاء جيلى أعترف بها بصوت مسموع.. وإذا كنت تسمع من بعضنا الضيق بما حدث فليس معنى هذا تبرئتنا مما حدث ولكن رغبتنا فى أن يفطن جيلكم ويعيد إصلاح ما أفسدناه إذا لم يعطنا الزمن فرصة إصلاحه.

وليس هذا تهربا من المسئوليات التى على جيلنا أن يقوم بها فليس هناك من هو أكثر من جيلى شعورًا بالعذاب والألم خصوصًا أن المشاكل تبدو معقدة وأصعب ما فيها أنه لا يمكن حل مشكلة بعيدا عن المشاكل الأخرى.. مشكلة التعليم لها علاقة بعديد من المشاكل الأخرى.. وقضية المخدرات لا يمكن مواجهتها دون حل بمشاكل المدارس المكدسة والتربية فى المنزل والفراغ عند الشباب.. إلخ.. فعديد من المشاكل يجب أن نحلها فى وقت واحد.. وهو قدرك أن ترث بعض هذه المشاكل وإن كنت واثقا أنك فى جيلك سيكون أمامك قدرة أكثر على الحل.. لأنكم لن تضيعوا وقتًا طويلاً فى اكتشاف الصواب من الخطأ.. وإذا كنت تسمع عن أخطاء ننسبها إليكم فليس هذا مسئوليتكم وحدكم وإنما مسئوليتنا أيضًا قبلكم.. لك كل أمنياتى وإلى أن نلتقى فى رسالة جديدة بإذن الله.



أنتم القادرون على التغيير

عزيزى شريف:

فى كل مرة أسافر فيها، إلى الخارج أطيل النظر فى مختلف القوى العاملة.. سائق التاكسى، والبائع فى المحل، وكمسارى الأتوبيس، وموظف شركة الطيران، وعاملة الأسانسير، وعارضات الأزياء وأدوات التجميل فى المحلات الكبيرة، والسيدة الجالسة إلى الكيس أو الخزينة فى المطاعم العديدة المعروفة باسم «اخدم نفسك» وغيرهم وغيرهم.. أحاول وأنا أنظر إليهم أن أعرف كيف يعملون، وماذا يحملون من شهادات وخبرات؟

ولعلى بداية أوصيك عند السفر إلى الخارج أن توفق بين نظرتين أساسيتين لهذه المجتمعات الغربية التى تزورها.. نظرتك إلى هذا المجتمع ففى أيام إجازات آخر الأسبوع يومى السبت والأحد، ثم نظرتك إلى هذا المجتمع فى خلال أيام العمل طوال الأسبوع.. إن كثيرين من الشباب بكل أسف يخلطون ويخطئون.. يحكمون على هذه المجتمعات إما من خلال صورة الحياة التى يرونها فى خلال أيام أجازة آخر الأسبوع، أو من خلال الظواهر الشاذة المنحرفة لبعض الشباب أو الشابات - ونحن بهذه النظرة القاصرة نخطئ الأحكام ونتصور أنه ما دام هناك بعض المنحرفين الظاهرين من الشواذ جنسيا وخلقيا وفكريا فلابد أن كل المجتمع بهذه الصورة.. وهو كما قلت لك قول خطأ.. فخلف الظواهر السطحية التى تراها لهذه النماذج الشاذة أو لصور المرح والاحتفالات التى يقيمونها فى خلال ليلتى آخر الأسبوع يوجد ملايين كثيرة يعملون وينتجون ويعرقون

ويبذلون الجهد الكبير، وإلا فمن هو الذى حقق هذا التقدم الذى حققته هذه البلاد، ومن هو الذى يدير حركة التطور التى تستطيع أن تلمسها وتراها فى كل مرة تزور فيها الخارج.

هل هو من كوكب آخر؟ احيانا ما أسال نفسى وأنا أحاول المقارنة بين ما يحدث هناك وما يحدث هنا فى مصر هذا السؤال.. ثم أجد أمامى نموذجا متكررا يلغى فكرة أننا كونان مختلفان.. أجد نموذج المصرى عندما يصل إلى هذه المجتمعات ويعمل هناك فى أى موقع وقد نافس أبناء المجتمعات نشاطهم وإخلاصهم وجدهم وجهدهم.. إذن فنحن وهم من طبيعة بشرية واحدة.. من طينة واحدة.. ولكن أهم الفوارق التى اكتشفتها تحطيمهم فكرة التفرقة بين البدلة الزرقاء والبدلة البيضاء أو السوداء.. بين بدلة العامل وبدلة خريج الجامعة .. بين من يعمل بيده ومن يجلس إلى مكتب.. الكل يبدو فى عيون الناس أنهم واحد ما داموا يعملون.. إن من الطبيعى أن تختلف أهداف الشباب وتعدد آمالهم.. لكننى فى مصر وجدت تقريبا هدفا واحدا لكل شاب هو أن يدخل الجامعة ويتخرج منها طبيبا أو مهندسا أو ضابطا.. حتى لا أكون ظالما فسوف أقول إن هذا هو حلم كل شاب قبل أن يقف أمامه حاجز امتحان الثانوية العامة ويوزعه مكتب التنسيق.. لكن الجميع سواء منهم من حقق هدفه ودخل الطب أو الهندسة أو دخل أى كلية أخرى يتساوون فى الآمال: المكتب الذى يجلسون إليه..

كل شاب يحلم بالمكتب..

المكتب بصورته المعنوية.. ذلك أنه من كثرة أعداد الموظفين الذين تحملت الدولة تعيينهم ضاقت بعض الوزارات والمصالح بالذين يعملون فيها حتي لم يعد لكل منهم مكتب يمكن الجلوس إليه.. ومن ثم تحول المكتب فى نظر الكثيرين إلى مجرد اسم يظهر فى كشف المرتبات.. فالمكتب هو المرتب.. والمرتب هو الأمل..

فى نظرتى إلى شباب الخارج وجدت شيئا مختلفا.. شبابنا يتطلع إلى المرتب.. والمرتب هو الأمل..

فى نظرتى إلى شباب الخارج وجدت شيئا مختلفا.. شبابنا يتطلع إلى المرتب،

وشبابهم يتطلع إلى المكسب.. والفرق كبير بين الاثنين.. من يجرى وراء المرتب هدفه أن ينتظر الوظيفة، أما من يطمع فى المكسب فإنه يلهث وراء تحقيقه ويبدأ فى سؤال نفسه كيف يحقق هذا المكسب، وما هى دواعيه، وما هى احتياجاته ولوازمه، وهو لا يفكر فى ذلك من فراغ وإنما من حساب احتياجات السوق.. ولهذا تختلف وسائل وتتعدد الطرق التى يسلكها الشباب الأجنبى.. الشهادة الجامعية ليست هدفا سوى لمجموعة قليلة، أما الأكثرية فهى تبحث عن الكسب.. وهو ما لا يتحقق بغير العمل.. ولهذا نجد كل سائقى التاكسى متعلمين، وكل الكمسارية فى الأتوبيسات، وكل الباعة، وكل فئات العاملين المختلفين.

وأنا أقول متعلم بمعنى حاصل على شهادة ثانوية أو فنية أو حتى جامعية، وقد وجدت أن مثل هذه الشهادات فى مصر تقف عقبة أمام توافر فرص العمل لحامليها.. لأن المصرى المتعلم حامل الشهادة فى ذهنه وظيفة معينة بمرتب ثابت.. بينما الأمى الذى لا يحمل أى شهادة يصبح مثل جوكر الكوتشينة.. مطلوب فى كل وقت وكل عمل والفرص أمامه مفتوحة.

وهو شىء غريب ووضع مقلوب أن تغلق أبواب العمل وتقل فرص الرزق أمام المتعلمين، وتفتح أبواب العمل وتزداد فرص الكسب والدخل أمام الأميين.

وضع لا يوجد إلا فى الدول التى حولت الشهادات إلى أوثان وأصنام يمارس الشباب عبادتها وهو ما لا يوجد فى هذه المجتمعات الغربية التى حققت تقدمها..

إن عدد موظفى الدولة فى مصر يقترب من الـ ٦ ملايين موظف، إذا أخذنا فى الاعتبار أعداد العاملين فى القطاع العام، أما فى إنجلترا فقد كانت هناك مناقشة قبل أسابيع ابدت فيها رئيسة الوزراء انزعاجها الشديد، لأن جهاز الدولة البريطانى مهدد بحالة ترهل، إذ اقترب عدد الموظفين فى أجهزة هذه الدولة من الـ ٦٠٠ ألف ٦ ملايين موظف فى مصر يقابلهم ٦٠٠ ألف فقط فى بريطانيا العظمى، لأن الدولة ليست جمعية خيرية أو تعاونية، ولأن يد العمالة يجب أن تتوزع على مختلف الأعمال، وبشرط أن يكون كل منهم متعلما.. فالمتعلم يطرد الأمى ويعمل بيديه.. السباك متعلم.. المكوجى متعلم.. بائع السندوتشات فى

المطعم متعلم.. سائق التاكسى من النادر ألا يكون إلى جانبه صحيفة أو صحيفتان..

ولكن عندنا الأمى هو الذى يطرد المتعلم.. لأن المطلوب للعمل فى بلادنا اليوم تلك الأعمال التى تحتاج إلى يد عاملة.. أما حملة الشهادات فيرون أنهم حصلوا على شهاداتهم ليطهروا أيديهم من ممارسة العمل بها!

حاول أن تطلب ممرضة للعمل فى أحد البيوت فى مصر لرعاية مريض والجلوس إلى جواره خمس أو ٦ ساعات فى النهار، سوف تجد أنه من الصعب أن تجد طلبك.. ولو توافر فإن أجر هذه الممرضة فى ثلاثة أيام يوازى أجر خريج الجامعة الجالس إلى أى مكتب فى شهر كامل.. ومع ذلك مازالت فتيات كثيرات يفضلن انتظار المكتب وهو الاسم المستعار «للمرتب» بدلا من أن تتعلم مهنة التمريض التى تستطيع أن تكسب من ورائها عشرة أضعاف مرتب خريج أو خريجة الجامعة..

هذه القيود والخطوط الوهمية هى التى تساعد على انتشار البطالة بين الشباب الجامعى المتعلم .. لأن البطالة فى مصر غير موجودة بين الأميين.. أو قل غير موجودة فى كل الأعمال التى لا تحتاج إلى مكتب..

أعرف أن هناك قوالب صماء مازالت تحكم مجتمعنا.. خصوصا عند الزواج وسؤال أسرة العروس عن العريس وتأكدها أنه حاصل على شهادة جامعية..

أعرف أن هناك من لا يزال يتطلع إلى شهادة الجامعة على أساس أنها سفينة نوح التى يجب أن يتعلق بها، بينما الواقع أن عدد الذين فى السفينة قد زاد إلى الحد الذى يهددهم جميعا بالغرق..

ولعل السؤال الذى يجب أن نبدأ به: من الذى يقوم بالتغيير؟ الأب والأم اللذان لايزالان يصران على أن يزوجا ابنتهما من خريج الجامعة، أم الشباب الذى عليه أن يحطم كل أصنام وأوثان الشهادات الدراسية وينزل إلى ممارسة العمل بيديه ومنافسة الأميين ومطاردتهم، واستخدام التعليم الذى حققه وسيلة لتحسين الخدمة وترويج العمل الذى يؤديه.

فى رأيى أن الشباب هو الذى يجب أن يأخذ المبادرة.. لأن الشباب هو أداة الثورة والتغيير.. ولو نظرنا إلى كل الثورات التى عرفها التاريخ لما وجدنا قائدا لها تجاوز سن الأربعين بل كلهم فى سن الشباب.. اعتبارا من نابليون إلى لينين إلى هتلر وموسوليني وجمال عبد الناصر وغيرهم.. الشباب هو القادر على فرض رؤيته الجديدة.. ومن الطبيعى أن تقاومه الأجيال الأكبر ولكن قوة الشباب وطاقته المتجددة هى التى تفرض كلمتها.

وأنا ألاحظ أن عددا من الشباب قد بدأ يتقدم الصفوف ويقوم بالتغيير، ولكن بإحساس من الخجل أو الخوف..

مازال الشاب المتعلم يشعر بالعيب إذا عمل سائقا للتاكسى، مع أن سائق التاكسى المتعلم سوف يكون بالتأكيد أفضل سلوكا وأخلاقا وذوقا من غير المتعلم..

لا يزال الشباب المتعلم يشعر بالخجل إذا عمل فلاحا لأنه يريد أن يكون مهندسا ولهذا أصبحت النتيجة كثرة المهندسين الزراعيين العاطلين وندرة الفلاحين العاملين..

العيب والعمل هما العقدة التى تخلصت منها المجتمعات الغربية فالعيب عندما لا يعمل الشباب، أما مادام يعمل عملا شريفا يكسف منه فهو إنسان يعيش مجتمعه، ويشارك فى بنائه وفى تقدمه وفى سداد الضريبة التى تستخدمها الدولة فى توفير كل الخدمات.

إن كثيرين من الشباب يطالبون الآباء والأمهات بأن يبدءوا هم بتغيير نظرتهم وأن يعطوا للميكانيكى والمكوجى والسباك والنقاش والممرضة وغيرهم وغيرهم نظرات الاحترام التى يعطونها للذين يجلسون فى المكاتب.. وأنا أقول لشبابنا إنكم قادرون على أن تغيروا بأنفسكم هذه النظرة، وأن تجبروا كل الأجيال المتقدمة فى السن على تقدير من يعمل بصرف النظر عن الشهادة الجامعية أو المكتب.. بل لعلى أقول أننى أجد بريق أمل فى نماذج تحققت ولكنها ما زالت معدودة ومحدودة.. أنتم الشباب القادر على التغيير فلا تيأسوا..

وعندما تزور أى دولة فى الخارج انظر جيدا إلى نوعيات الذين يمارسون كل أعمال البيع والشراء وقيادة السيارات والعمل فى محطات البنزين وفى شركات الخدمات والبريد والتمريض.. إلخ، تجد أنهم جميعا شباب متعلم.. وضع هدفه أن يعمل ليكسب أما كثرة شبابنا فهدفهم المكتب بصرف النظر عن العمل.. ولو سألت أى فرد فى أى موقع فى وزارة أو هيئة أو شركة لوجدت عشرات بل مئات التوصيات التى توصى على «تعيين» الشباب لا «تشغيله».. ولكننى متفائل بشبابنا.. وواثق أن سنوات المحنة التى يجتازها اليوم سوف تصلب عوده، وسوف تجعله يعيد التفكير فى كثير من المفاهيم البالية، ويعبر بكل مصر من دولة التعيين إلى دولة التشغيل، ومن دولة المرتبات إلى دولة المكسب.

ولو اعدت النظر فى مجتمعنا سوف تكتشف شيئا غريبا.. وهو أننا نواجه فائضا فى التعيين، وأزمة فى التشغيل.. هل تستطيع مع زملائك أن تحلوا هذا اللغز؟!.



فهرس الكتاب

الصفحة

الصفحة

رقم الإيداع		١٩٨٩ / ٨٥١٩
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢٧٧٩-X	ISBN

٢ / ٨٩ / ٣٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

الشباب مغامرة ... معرفة .. اقتحام ..

والأجيال عبارة عن قطار متتابع العربات .. فيه الذى ينفصل ويرحل عن عالمنا ، ولكن من يبقى يظل داخل إحدى العربات وهو ما يقتضى أن يكون هناك حوار دائم ومستمر بين الركاب .. القدامى والجدد .. جيل الآباء وجيل الابناء .. جيل الثلاثينات وما قبله ، وأجيال الستينيات وما بعدها .. والشباب يسأل فى كل شىء ويريد أن يعرف عن الحب والصحافة والمخدرات والأحلام والماضى والمستقبل .. الخ وهذا الكتاب محاولة للإجابات على تساؤلات أى شاب من كاتب له أكثر من ٣٥ عاما وهو يمارس مهنة القلم .. إنها رسالة لأى شاب وكل شاب ..

ص
٣٠٠